مقبرة الأحياء

مقبرة الأحياء

عبد العزيز السيسي

تصميم الغلاف: محد علي

رقم الإيداع: 2019/7484

I.S.B.N:978- 977-6640-55-9

الطبعة الأولى 2019م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01147633268 - 01099387500

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com

Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

عبد العزيز السيسي

مقبرة الأحياء

رواية

زين للنشر والتوزيع

مقدمة

على نغمات متقطعة يبثها إلينا صرصور الحقل، وحفيف أعواد زهرة الشمس المرتفعة التي طأطأت رأسها في انتظار يوم جديد يحمل شمسا جديدة..

وهناك عند شاطئ الترعة كما هي عادتهم يجتمعون يتنسمون نسمة عصاري تريح أنفاسهم من تلك الرطوبة الحارة التي أوقدت أنفاسهم فصنعت بداخلهم جحيماً مستعراً وعلى وجوههم لفحة شمس حارقة تحفر آثارها بقسوة..

وبين كل هذا يجتمعون ليجتروا ذكريات قديمة وروايات الأولين فتصدر تأوهات التعجب وصيحات الاستهجان فتستحيل إلى ضحكات تهز أرجاء القرية فيصل صداها إلى المقابر عند أطراف القرية فتؤرق تلك الضحكات الموتى!

عالم من العبث الأسطوري يتأرجح بين القسوة واللين، والرحمة..

عالم من اللامنطقية حيث يجتمع عبير الطبيعة فيختلط مع رائحة فضلات البهائم..

فلا بأس إذن إن وجدنا القبور تلتحم بشكل فوضوي مع المنازل الحديثة عند أطراف القرية!!

بل لهو العبث ذاته مرة أخرى أن تتحول القرية كلها بين لحظة وأخرى إلى سرادق عزاء مفتوح حتى إذا وارى الفقيد

التراب عادوا كأن شيئا لم يكن بل قد يستطيع الميت أن يسمع قهقهة الضحكات متداخلة مع خطوات المشيعين..

لا يمكن أن تكون قرية بلا عفاريت كما أنه لا ترعة بلا نداهة ولا ساقية بدون عامل من المردة!!

ومثل هذه القصص لا يمكن لسامر أو ساهر أن ينتهي بغير الخوض في تفاصيلها..

كذلك في روايتنا التي بين أيدينا نحيا هذه الحالة المضطربة المتداخلة المتشابكة التي تجمع بين المتناقضات فتحيك منها ثوبا عجيب التطريز.. الرومانسية الحالمة تتداخل مع السحر الأسود في خليط فريد من نوعه فما العجب إن كنا أمام عصابات إجرامية؟!

كل هذا تحمله هذه الرواية بجرعات سريعة مكثفة دون أي ملل أو كلل فنجد أنفسنا في النهاية أمام لوحة رائعة التراكيب والألوان..

إهداء

إلى أبي/ الحاج محمد عبدالعزيز شديد السيسي

وأمي وزوجتي وأولادي/ خالد ومحمد ومحمود

وجميع عائلتي وأخص بالذكر خالي الحاج/ سامي عبد القوي

والحاج/ حسان عبد القوي، والحاج/ سعودي عبد القوي

كما أهدي روايتي هذه إلى جميع أصدقائي داخل مصر وخارجها

وأخص بالذكر الكاتبة الأستاذة/ رحاب إبراهيم

والكاتب الأستاذ/ إسلام سمير

والكاتب الأستاذ/ عمرو ممدوح

وأخيراً أهديها لكل قارئ حرص على قراءة كلماتي

وأخص بالذكر بنت سوريا الأستاذة/ وفا مهنا مديرة مدرسة الشهيد زيد بدران

أدام الله كل هؤلاء بحياتي وأنار بهم أيامي..

ريف مصر- 1990

كان الليل بارداً، والسحب كأنها لحاف أسود، نامت خلفه النجوم والقمر، تاركين العواصف الشديدة تكنس طرقات هذه القرية، وتتشاجر بقسوة مع أشجارها، وتقذف بأوراقها إلى أماكن بعيدة باتجاه المدينة، تلك المدينة التي استغل سكانها هذه الأجواء الشتوية، لكي تتعانق الأجساد، وتتقلب الشفاه فوق بعضها البعض في وقت كان فيه الفلاحون كسجناء خلف الأبواب والنوافذ التي تنبعث منها أضواء باهتة كأضواء الشموع، ولمبات الجاز حيث لم يجد الساهرون منهم أي تسلية سوى أن يلتفوا حول نار الشتاء، ويتبادلوا الأحاديث والقصص عن الجن والأشباح والأرواح مادامت العواصف تدق على الأبواب والنوافذ هكذا كعفريت يدق فوقها بيده العملاقة..

والحقيقة هم يمتلكون العديد من القصص المأثورة حول هذه الظواهر، مثلاً قصة "حمدان والجنية" وقصة بنت عوض الحانوتي..

آه.. يبدو أن هناك من جاء الآن بسيرة "عوض" الحانوتي، وإلا ما شهق هكذا وكأن روحه تخرج من جسده..

لا بل أنها بسبب ذراع زوجته النائمة الذي التف حول رقبته حيث استيقظ "عوض" وهو يريد أن يبصق في وجهها لولا أن رأى أن هذا هو الوقت المناسب الذي يجب أن يستيقظ فيه.

فتح "الحانوتي" الدولاب، وكأنه فتح "فاترينة" في محل ملابس فهناك جلاليب متراصة يبدو أنها أكثر من جلاليب العمدة ذاته ولكنه لم يحتر طويلاً بالاختيار، فقد ارتدى جلبابه القاتم وانتعل حذاءه المخصص لوحل الأمطار، ثم وقف أمام المرآة، ليصفف شعره الذي يشبه سلك المواعين ويهندم لحيته المجعدة، فربما أراد أن يكون في أبهى صورة أمام أعين الأموات التي يبدو أنه قد صنع من هياكلها العظمية تلك العصا المعوجة التي أمسك بها وغادر غرفته، وبينما هو بطريقه للخروج من البيت، إذ شاهد ضوء الكشاف يتسلل من تحت عقب باب غرفة ابنه الدكتور "عصام".

طرق باب الغرفة، فسمع صوتاً مرحباً، وعندما دخل الحانوتي وجد ابنه واقفاً كعسكري أمام مأمور المركز.

قال الحانوتي: لمَ هذا السهر يا عصام.. أليس من الأفضل أن تستريح.. أم نسيت أن افتتاح عيادتك غداً؟!

ابتسم "عصام" ابتسامة قلقة

ورد: لا لم أنس، ولكنني خائف.

حدق الحانوتي في وجه ابنه

وقال بدهشة: خائف من ماذا؟

. من المسئولية يا أبي في الوقت الذي أشعر فيه أن مستواي هزيل في هذا العلم وأخشى من الفشل في تأدية هذا الدور الحساس.

. كيف تخشى ذلك؟.. ألم تنجح كل عام بأعلى تقدير؟

أبدل "عصام" ابتسامته لأخرى ساخرة هذه المرة

ورد: صدقني يا أبي.. أنا لا أعرف إلى الآن كيف تخرجت في الجامعة، فلو أنك وزيرٌ لشككت أنك من تأمر الدكاترة بذلك.

قال الحانوتي مداعباً ابنه: لابد أني صغيرٌ في نظرك

رد عصام نافياً بعد أن قبل يد أبيه: لا لا.. العفو يا أبي بل إني أراك أكبر وأعظم رجلٍ بهذه القرية.

ربت الحانوتي على كتف ابنه وقال

بصوت خافت: كن على يقين من نجاحك يا "عصام"، فلن تكون أسوأ من أطباء الوحدة الصحية في كل قرية.. وحتماً سوف يصبح علاجك أفضل من الطين الذي يسد به الفلاحون جروحهم أملاً في الشفاء العاجل.

ثم ضم الحانوتي ابنه لصدره وأكمل

هامساً بأذنه: ولكن لا تنس أن ترسل لي من يموت بين يدك.. أم نسيت أني حانوتي هذه القرية؟ !

ضحك "عصام" ضحكة رنانة، وبادله أبوه بضحكة طويلة متواصلة بدت من خلالها أسنانه سوداء كالطين المتراكم على

جانبي شاطئ الترعة، وحمداً لله أنه انتهى وأغلق فمه قبل أن تتطاير منه الحشرات والضفادع.

اتجه الحانوتي صوب الباب وهو يقول: أتريد مني أي شيء يا "عصام"؟

. قال عصام مبتسما: أريد سلامتك دائماً يا أبي.

وبالطبع "عصام" لا يريد قدماً أو ذراعاً لميت، فهو يعلم أن أباه ذاهب لعمله وليس لدكان "شحاتة" البقال، حيث رص العظام المتراكمة على جانبي المقابر من أجل إفساح الأماكن لمن سيلحقه الدور ويحصل على لقب ميتٍ.

لمح الحانوتي زوجته تتثاءب على باب غرفتهما، تلك الزوجة التي بالطبع لم يتعرف عليها في لجنة مرور، فقد شاهدها لأول مرة في إحدى جنازات المدينة وقد كانت تلطم خديها بقوة حتى زادا احمراراً وجمالاً.

والحقيقة أبدى على الفور إعجابه بها، في نفس اللحظة كان على يقين أن هناك مسافة كبيرة بينها وبينه، فقد كان يعتقد أنها زوجة الميت، ومن المؤكد أن من أظهرت هذا الحزن على زوجها حتماً لن تنظر لأي شخص آخر، وحينما شاهدها مرة أخرى في إحدى جنازات القرية، تحرى عنها حتى علم أنها مجرد ندابة من ندابات الجنازات، وتعمل ليلاً كراقصة في إحدى الملاهي الليلية بالمدينة، لذا اقتربت المسافة بينهما تماماً، وزاد إعجابه بها أكثر من ذي قبل.. ولم لا؟

فهي متعددة المواهب، ترقص وتغني وتلطم، وبعد علاقة حب دامت لأكثر من سبعة أشهر، اعتزلت مهنة الرقص نهائياً،

ووافقت على الزواج منه، بالرغم أنه لم يكن إلا عاملاً بسيطاً في مزرعة البقر الخاصة بوالد العمدة "بركات".. أي لم يكن قد حصل بعد على لقب حانوتي هذه القرية الصغيرة.

اقترب الحانوتي من زوجته

وقال: ما بك يا "أم الخير".. ألم تكوني نائمة منذ دقائق؟

. أجل.. ولكن أيقظتني ضحكاتكما، وحمداً لله أنني استيقظت.

. خيراً.. ما الأمر؟!

نظرت "أم الخير" نظرات مراوغة إلى غرفة ابنها

وقالت بهمس: إنك تعلم أن "أبا محمد" قد تزوج زوجة ثانية إضافة إلى أم محمد قاطعها الحانوتي قائلاً: وما الذي أستطيع صنعه؟!

مدت "أم الخير" يدها بلفافة صغيرة، بعدها

أكملت: فقط ضع هذا العمل في فم أحد الأموات كما كنت تفعل من قبل.. حتى يرى زوجته الجديدة أبشع مخلوقة في الوجود.

. ولكنك تعلمين أنني أصبحت أكبر من هذه التصرفات أم أنك نسيت مشروعاتنا الحالية أيتها الساحرة؟!

مدت "أم الخير" يدها في جيب جلبابها، وأخرجت خمسين جنيهاً وأعطتها له

وقالت: لقد أرسلت إليك هذا المبلغ.. إضافة إلى ثواب الله يا "عوض".

أخذ "عوض" النقود من زوجته، ثم نظر لسقف الغرفة

وقال بخشوع المنافقين: ونعم بالله.

غادر "الحانوتي" البيت أخيراً، في وقت كان أزيز الرعد صاخباً ومرعباً حيث هطلت الأمطار بشدة، وتحولت إلى ثلوج أرادت أن ترجمه على ما سيبدر منه بحق الأموات، أما هو فقد كان يسير بخطوات منتظمة..

فجأة صاح العمدة من نافذته: إلى أين أنت ذاهب يا "عوض" بهذا الوقت؟

رد بثبات: إلى المقابر يا حضرة العمدة؟

. ألاحظ أنك تمر بهذا الوقت من كل أسبوع.. أهذا أيضاً من أجل الذهاب للمقابر؟

. أجل.

. ولكن لمَ لا تؤجل عملك إلى ليلة لا يكون الطقس بها هكذا؟

. خدمة الوافدين الجدد من الأموات، لا تؤجل إلى الغد يا حضرة العمدة.. أم تريد أن يرقد الميت في الشارع؟ !

ابتسم العمدة قائلاً: لا يا "عوض" قواك الله.. وأطال بعمرك.

رد عوض: ولك المثل يا حضرة العمدة.

لم يقلق الحانوتي حيال تلك الأسئلة من قبل العمدة، فالعمدة كثير الأسئلة بالرغم أنه يعلم إجابتها جيدا، حتى أنه قد سبق له هذه الاستفسارات في كثير من الليالي الماضية، وليس غريباً إن حدّث الحانوتي عن ميعاد افتتاح عيادة ابنه على الرغم من علمه أنه غداً، ولا شيء يثير الدهشة إن سأله عن مكان العيادة أيضاً، على الرغم أنه يعلم أنها زريبته التي أهداها بنفسه للحانوتي ليحولها إلى عيادة.

واصل الحانوتي السير وعندما عبر بيوت القرية وسار بجوار شاطئ الترعة، ابتسم دون سبب وهو ينظر تجاه الشاطئ الآخر، فربما تذكر قصة "حمدان والجنية"، إذ يقال إنها طاردت "حمدان" وهو يستحم في الترعة، ولكنه أفلت منها حينما أمسك بجذع شجرة كانت تقف على الشاطئ ولكنه لم يفلت من قبضة العمدة "بركات" بعد شكوى العديد من النساء، تفيد أنه كان يهرول من أمامهن، وهو عار تماماً كما ولدته أمه.. ولم يشفع "لحمدان" حديثه عن تلك التي كانت تطارده، فالجميع أجمع على صدقه وأجمعوا أيضاً على الموافقة على حبسه، فقد كان من الشرف أن يموت على يد "الجنية" على ألا يظهر هكذا أمام النساء.

وها قد وصل الحانوتي أخيراً للمقابر، ثم أخذ يتجول بأحد شوارعها على الرغم أنه يعلم جيداً أنه لا يسير وحده.. فهناك وقع أقدام تتباعد عنه كأنها تسير فوق أعواد من القش.. لكن لا بأس.. فقد اعتاد على هذه الأمور ولم يشعر بأي خوف بحكم مهنته بل يبدو أن أشباح الموتى هي من ترتعد خوفاً منه.. ولم لا؟

فهو من سجن أجسادهم داخل المقابر، وهو السجان الذي يعبث بسلسلة مفاتيحه الآن ولكني لا أعرف ما حاجة هذا الحانوتي بغلق أبواب المقابر؟

فالموتى لا يستطيعون الخروج حتى ولو الأبواب مفتوحة.. والأحياء أيضاً لا يريدون الدخول.. لابد أنه يخشى رائحة الموتى.. أو من عبث الكلاب بالجثث، ولكن أي كلاب؟

فقد نسي هذا الرجل باب أحد المقابر مفتوحاً في إحدى الليالي، وعندما أدرك ذلك وعاد بالصباح، وجد العديد من الكلاب تقف كالحراس على باب المقبرة، ربما جاءت الثعالب والذئاب وعبثت بجثث الموتى، يبدو أنه يخشى كلاب البشر الذي يعد هو واحد منهم..

فتح الحانوتي أحد المقابر، وظل يحملق بأفواه الموتى، ليقترب أخيرا من جثة طفل ويضع داخل فمه ذلك العمل السفلي الذي أعطته له زوجته لكي يفرق به بين "أبي محمد" وزوجته الجديدة. وقد دفعت "أم محمد" النقود مقدماً.

والآن أخلص هو في عمله حينما دفن العمل في فم طفل مدفون داخل مقبرة، حيث اتجه إلى مقبرة أخرى، وأخذ يتفحص رؤوس الموتى، وينتقيها كتاجر يجهز بضاعته من أجل بيعها للزبائن.. فهذه الرأس لم تنضج بعد فلا يزال الشعر عالقاً بها، كما أن جلد الوجه لم يتساقط بأكمله.. أما هذه فتصلح.. وهذه أيضاً يليق أن يطلق عليها اسم جمجمة.

جمع الحانوتي العديد من تلك الجماجم، وبالكاد سحب كفناً ملفوفاً حول جسد أحد الأموات، وكأن الميت يمسك بكفنه

ويقول له: لا.. اترك لي هذا الغطاء، فإن الطقس شديد البرودة هذه الليلة.

وضع ذلك الرجل هذه الجماجم في الكفن، وأغلق المقبرتين بإحكام وجلس أمام أحدهما، وكلما سمع أصواتاً غريبة، يقف ويتنحنح بصوت أجش؛ ليسود الهدوء مرة أخرى بالمكان.

مرت ساعتان تقريبا قبل أن يتسلل إلى الشارع ضوء باهت منبعث من مصابيح سيارة تترنح من أثر وحل الأمطار حتى بدت وكأنها تحتسي الخمر كمالكها الدكتور "صالح" المدرس الجامعي الذي أخذ يبحث بوساطة ضوء السيارة عن ذلك الشارع الذي ينتظره فيه الحانوتي.. وعندما اكتشف مكانه، تقدم نحوه بحذر، ونظر للبضاعة الجديدة، إنها ثماني قطع فقط هذا الأسبوع.

قال صالح: ثماني قطع فقط يا "عوض".. ما هذا الشح؟

رد عوض: لقد جئت هنا منذ ثلاث ساعات، وكان بإمكاني أن أجلب لك المزيد ولكن أردت أن أريح نفسي هذه الليلة خاصة أن افتتاح عيادة تلميذك وابني "عصام " غداً يا "صالح".

ويا له من شيء غريب!!! لا أعرف كيف يحادث الحانوتي ذلك الدكتور هكذا دون ألقاب؟

ربما لأنهما يتقابلان في ليال حمراء يحتضنان خلالها النساء، ويحتسيان الخمر ويتناولان جرعات المخدرات سويا. أو لعلمهما أن سكان الأماكن المشبوهة كسكان القبور لابد أن ترفع عنها الألقاب..

وفجأة!!!! علت ضحكة مجلجلة تشبه إلى حد كبير صوت ماكينة الري، التفت الدكتور سريعاً، ليشاهدها هناك تقف فوق أحد المقابر في آخر الشارع، وقد صاحت بشيء من

الدعابة: شاهدتكما.. شاهدتكما..

وعندئذ ضحك الحانوتي قائلاً: لا تقلق يا "صالح" إنها سيدة مجنونة قد اعتادت المكوث هنا ليلاً بعد أن مات زوجها منذ شهر.. كما أنها تضحك هكذا حتى إن لم يتواجد أحد وكأنها ترى مسرحية كوميدية يقوم بها كل ليلة أشباح هذه المقابر.....

لم يعلق الدكتور "صالح" بأي كلمة أخرى حيث استقل سيارته وقبل أن يغادر مد يده للحانوتي بأجرته عن هذه البيعة، ولكن الحانوتي أمسك بيده

وقال: لا تنس افتتاح عيادة "عصام" غدا في تمام الساعة العاشرة ألم تأتك دعوة من ابني عبر البريد؟

رد الدكتور بقلق: أجل.. أجل لقد تسلمتها ابنتي، وأخبرتني عنها.

. إذاً لا تنس أن تأتي.. واطمئن لن يعلم أحد بعلاقتنا هذه مادام ابني هو من دعاك بنفسه، وكل أساتذته بالجامعة أيضاً.

غادر الدكتور "صالح"، في حين كان ينظر له "عوض" الحانوتي بكل غل وحقد. والحقيقة.. قد اعتاد هذا الحانوتي على هذه النظرة، فقد استغل هذا الدكتور فقر الحانوتي عندما ذهب هذا الأخير للجامعة يشكو من ارتفاع تكاليف الجامعة التي بدت منذ الشهور الأولى لدراسة ابنه، لذا كان هذا العرض السري من الدكتور وكانت الموافقة من الحانوتي الذي علم من اللحظة الأولى أن الدكتور يتاجر بالمخدرات، وليس بحاجة لتلك الجماجم من أجل أبحاثه الطبية كما قيل له، وإلا ما طلب الدكتور منه عدم زيارته بالجامعة، أو التفكير حتى بقدومه لبيته على الرغم من علاقتهما التي تطورت بعد ذلك.

وهكذا ظل الحانوتي متقناً لدور الأبله، ما دام يتقاضى أجراً حتى ولو كان بخساً، فهو على جثث ستصبح فيما بعد تراباً متراكماً فوق تراب علاوة على نجاح ابنه كل عام بكلية الطب حتى أصبح طبيباً دون أن يعلم الفرق بين حلوى الأطفال وأقراص الصداع.

غادر الحانوتي المكان وهو يدندن بالأغنية الشهيرة "حسنين ومحمدين" حتى أنه نسي أن يقرأ الفاتحة لابنته "صابرين" التي يتداول قصتها أهل هذه القرية إلى الآن. إذ يقال أنها كانت طفلة لم تتعد السابعة من عمرها حين دخلت دورة المياه الخاصة بالمدرسة بعدما أعلن الجرس عن انتهاء اليوم الدراسي، ويبدو أنه كان يعلن عن انتهاء عمرها أيضاً، فقد غادر جميع التلاميذ المدرسة وهي مازالت بالداخل وجاء الفراش ووقف عند الباب

الرئيسي لدورات المياه، فكل الأبواب مفتوحة حتى الباب الأخير شاهده أيضاً مفتوحاً على الرغم أنه لم يكن مقابلاً لنظره، أي أنه لو تقدم ونظر بداخله، لوجد "صابرين" جالسة تتلوى من المغص، ولكنه لم يفعل ذلك وأغلق الباب الرئيسي دون أن تشعر هي، أو ربما شعرت بالفعل وظنتها شقاوة زملائها من الأطفال، وعندما خرجت من دورة المياه وجدت الباب الرئيسي مغلقاً، ولم تشفع صرخاتها أن تنقذها، أو طرقات يدها أن تصل إلى أذن أي أحد من المارة خارج أسوار المدرسة.. لذا عندما فتح الفراش الباب في صباح اليوم التالي وجدها ترقد خلفه ميتة في حين كان شعرها أبيضاً وكأنها كبرت في هذه الليلة سبعين عاماً.. بعدها كثرت الأقاويل، فيقول البعض أن جني دورات المياه هو من قتلها ويقول الآخرون بل إنها ماتت من تأثير الخوف والذعر، فكلها تكهنات ولا أحد يعرف الحقيقة.. ولا أنا أيضاً، كل ما أعرفه أن والد العمدة بركات أخرج لها تصريحاً بالدفن، وقد تولى "عوض" هذا الأمر بنفسه، وحينما مات الحانوتي السابق تولى هو مكانه بعد أن رفض جميع أفراد أسرة الحانوتي السابق تولي الخلافة من بعده..

غموض

وصل الدكتور "صالح" إلى شقة "شريف عزمي" رئيس الجامعة الموجودة بإحدى البنايات المتواضعة والتي اتخذها خصيصاً من أجل مقابلة "صالح" الذي لا يعلم أن "شريف" يمتلك شقة أخرى يتخذها كعش للعصافير من النساء التي تتوافد عليها ليلاً، كان "شريف" يقف في إحدى الشرفات المقابلة للطريق بالرغم من هذا البرد القارس، وتلك الأمطار التي كان يختبئ منها تحت سقف تلك الشرفة.

رن جرس الباب، ففتح الدكتور "شريف عزمي".

. مساء الخير يا دكتور "شريف".

. مساء الخير يا "صالح".. لمَ تأخرت هكذا؟

. لم أتأخر بإرادتي، ولكن كثيراً ما تعثرت إطارات السيارة من أثر وحل الأمطار أثناء ذهابي، وعودتي من طريق المقابر.

. لا بأس.. تفضل.

جلس الدكتور "صالح" وأخرج الكفن من حقيبته الكبيرة، وأخذ يرص الجماجم أمامه على المنضدة التي تفصل بينهما،

بينما كان "شريف" يضرب بيده فوق الجماجم ويتفحصها جيداً وكأنه قد اشترى بطيخاً، وأراد أن يختبر جودة هذه البضاعة كعادته، ثم نظر "لصالح" نظرة مراوغة، وشعر أنه يريد أن يقول له شيئاً، لذا قال له "شريف" بهدوء وهو يعبث بإصبعه داخل عين إحدى

الجماجم: أراك بحاجة أن تقول لي شيئاً يا "صالح".. ها تكلم.

تنحنح "صالح" في بداية الحديث، وتحشرج صوته، لينظر له "شريف عزمي"

ويعيد: هيا تكلم يا "صالح" ما بك؟

عندئذ سأل صالح: أردت أن أعرف من الذي يستلم هذه البضاعة؟

سكت "شريف عزمي" للحظات قضاها ينظر للسقف، ثم قرب وجهه من وجه "صالح" وسأله: ألم تتقاض أجرتك كاملة يا "صالح"؟

. أجل.

. ألم ينجح ابن الحانوتي كل عام كما أردت؟

. أجل.

. إذاً لا تسأل عن أي شيء لا يخصك.

قالها "شريف عزمي" وهو يمد يده أمام وجه "صالح" برزمة من النقود، ولكن "صالح" وقف وأدار ظهره

وأكمل: لقد بدأت أخاف على مركزي يا دكتور "شريف" وأريد أن أؤمن نفسي وإلا ضاعت سمعتي، وسمعة ابنتي التي اقتربت من التخرج.

وقف الدكتور "شريف" خلفه، وجذبه من كتفه حتى استدار، ثم رفع النقود أمام وجهه مرة أخرى

وقال: إذاً فلتعتزل هذا العمل، أما هذه النقود فستصبح من حق من يتولى هذا الأمر بدلاً منك.

وهنا أمسك "صالح" بالنقود سريعاً وكأنه كلب يمسك بعظمة قبل أن تصبح من نصيب كلب آخر.

ضحك "شريف" ضحكة حادة مجلجلة، كادت أن تفقده توازنه لولا أن أمسك بكتف "صالح"

ثم قال بصوت يقاوم الضحك: هكذا يا "صالح" عدت إلى رشدك.

نظر "صالح" إلى النقود وكأنه يحادثها

حينما عاود: ولكني مازلت قلقاً يا دكتور "شريف".

تنهد "شريف" هذه المرة بعد أن كف عن قهقهته، وتحولت إلى ابتسامة مطمئنة حيث ربت على كتف "صالح"

قائلا: لا تقلق يا "صالح" فلا أحد يعرفك سواي، ومن تحضر منه البضاعة، أما من يستلم البضاعة فلا يعلم عنك أو عني أي شيء.

لم يتعمد "شريف" الكذب بهذا الأمر، ولكن بالرغم أن كل أفراد العصابة تخشى من بعضها البعض، وأن "شريفاً" لم يدل بأي معلومات عن "صالح" بالفعل

وأن "صالحاً" لم يتفوه بأي كلمة عن الحانوتي، إلا أن جميعهم معروفون لدى من يستلم البضاعة بالقاهرة إلا "صالح". فربما سيتعرف عليه غدا.

غادر "صالح" الشقة كاللص بعد سرقتها، وأدار محرك سيارته وهو يلتفت حوله سريعاً كعصفور يخشى بندقية الصياد، بينما دخل "شريف" الحمام، لحلاقة شعر ذقنه وبعض الشعيرات التي تتدلى من فتحتي أنفه

فهل من ستأتيه غداً من أجل استلام البضاعة لهي سيدة؟

أجل إنها سيدة ريفية ممن تتوافدن على البيوت من أجل بيع الجبن والقشدة لأهل المدينة، فقد كانت هذه السيدة تحضر في صباح الليالي التي كان يقضيها بوكره حتى عرض عليها إقامة علاقة جسدية بهذا المكان البعيد عن خدمه وزوجته وأولاده، وقد كان هذا الوكر خير مكان لتسليمها البضاعة بعد أن عرضت عليه هذا المشروع، ولكنها لم تفصح إلى الآن عن مكان إقامتها، أو عمن يستلم تلك البضاعة، ولم تسأل هي يوماً عمن يتعامل معهم "شريف" الذي تتردد على وكره في أوقات إتمام الصفقات، ثم تضع هذه الجماجم في حقيبتها البلاستيكية وتتجه نحو السيارات المغادرة للقاهرة.

عاد الحانوتي لبيته، وخلع حذاءه عند الباب من الخارج، ولا أعرف لمَ خلعه فلم يكن الحذاء أبشع ولا أقذر منه.

اتجه نحو غرفة ابنه "عصام" وفتحها، فوجده مستغرقاً في نومه، ثم دلف إلى غرفته، وأبدل ثيابه المبللة، بعد أن أخرج منها ثمن مبيعاته هذه الليلة.

وعندما هم بوضع النقود تحت وسادته، أمسكت زوجته بيده فجأة وأطلقت ضحكة انفجارية قبل أن تقول: أين نصيبي يا عوض؟

سريعاً وضع يده على فمها، المفتوح عن آخره كنافذة في يوم حار

وقال: هوووش.. هل أردت أن تفضحينا أيتها المعتوهة؟

. إذاً.. أعطني نصيبي الآن.

. أي نصيب.. أنسيت النقود التي دفعتها من أجل المعدات الطبية لعيادة ابنك.. أو تكاليف تحويل زريبة العمدة إلى عيادة.. لم يعد بحوزتي سوى هذه النقود.

وضعت "أم الخير" يدها على رقبته من الخلف

وقالت بدلال: لا شأن لي بذلك.. أريد خاتماً ذهبياً وبعض الملابس التي تشبه ملابس سيدات المدينة، أم أنك نسيت أنني كنت ابنة لها قبل أن أجد نفسي وسط فضلات قريتك يا "عوض"؟

لم يجب "عوض" خاصة بعد أن أخذت تتحسس صدره الذي يشبه صدر ثور، واقتربت شفتاها الغليظة من شفتيه التي ارتخت كدرفتي باب مكسور.

حينها ترك لها النقود تأخذ منها ما تريد مقابل هذه الساعات الحمراء التي دفع ثمنها أولاً..

وفجأة.. سمعا صراخاً حاداً يختلط مع ضحكات مجلجلة.

قال الحانوتي: ما هذا؟!!!!!

لم تجب "أم الخير" في البداية إلا، بعد أن ميزت صوت جارها "أبي محمد" وهو يتبادل رصاصات السباب مع زوجته الجديدة، وحتماً لم تصدر هذه الضحكات المتواصلة إلا من فم "أم محمد" زوجته القديمة

حينها قالت: لا تقلق.. يبدو أن العمل جاء بنتيجته الفورية، ثم نظرت لعوض نظرة مراوغة وأكملت: لكن يبدو أن ليلتك هذه لن تأتي معي بأي نتيجة

يا "سبع البرمبة ".

لقاء الضحايا

في اليوم التالي، وفي تمام العاشرة صباحا، فتح الحانوتي العيادة، وأخذ الفلاحون يتوافدون واحداً تلو الآخر حتى امتلأت العيادة بالناس ومن بينهم عمدة القرية الذي بدا تواضعه حينما بدأ يتبادل الحديث مع هؤلاء الذين لا حديث لديهم سوى تلك الترعة التي جفت وامتلأت بالجيفة المحملة بجيوش من الحشرات والفئران وهذه الدودة التي لابد أن تحلب لهم اللبن ما دامت تشارك بهائمهم في أكل البرسيم..

كان "عصام" يرتدي جلبابه البني وحذاءه البلاستيكي، ربما أراد أن يشعر الفلاحون أنه مازال واحداً منهم.. أي ليس هناك شيء تغير، فما زالوا هم أهله وهو ابن الحانوتي، أما هم فقد أتوا من أجل التهنئة، ولا مانع أيضاً في تبادل القليل من عبارات السخرية حيال ذلك الطبيب الذي بدأ يحارب رزق أبيه حيث أنه يفتح أبواب العيادة للحياة، ويفتح أبوه أبواب المقابر للموت.

لم يصدق الحانوتي نفسه عندما ظهر "شعبان الغرابلي" عضو مجلس الشعب ذلك الرجل الذي ترجع أصوله للمدينة،

ويقطن القاهرة منذ سنوات، ولم يأت للقرية إلا عندما يقترب موعد الانتخابات الجديدة. لذا هو هنا الآن دون أن يرسل له الحانوتي أو "عصام" أي دعوة..

دخل "شعبان" العيادة، وسلم على "عصام" وهنأه، وتوافد الناس على "شعبان" ليسلموا عليه، وعلى وجوههم ابتسامات عريضة زادت من عمق الشقوق المحفورة في وجوههم، بينما يسحب "شعبان" يده سريعاً فور ما تلامس يده يد أيٍّ من هؤلاء وكأنه يسلم على شخص أصيب بالجرب، ويخشى الآن من العدوى..

الغريب هؤلاء الذين يتزاحمون في الوصول إليه وكأنهم أمام شباك مخبز يبيع بنصف الثمن على الرغم أنهم على يقين أنه محتال، ولم يأت اليوم إلا ليخدعهم..

عندئذ صاح العمدة: بلد غريبة لن يتركها النفاق أبداً.

هكذا هش "العمدة" ذلك الذباب من حول "شعبان" حيث حل الصمت بالمكان، وبدأ الناس بالعودة إلى مقاعدهم، حتى هناك من لم يحالفهم الحظ بالترحيب به وانفضوا أيضاً من حوله.

نظر "شعبان" للعمدة نظرة ضاربة.. ضاربة بحجر.. ضاربة بسكين

وابتسم بغيظ: كيف حالك يا عمدة؟

رد العمدة بعد ابتسامة صفراء: حمداً لله.. كيف حالك أنت، فأنا لم أرك منذ أن نجحت في الانتخابات الماضية.

اصفر وجه "شعبان" ولم يتفوه بأي كلمة، ولكنه صاح داخل نفسه

قائلاً: يا لك من عمدة في منتهى قلة الذوق والغباء.

ظن الناس بالطبع أن العمدة، سيرشح نفسه في الانتخابات القادمة لذا هو مستاء من استقبال هؤلاء الفلاحين لهذا المحتال الذي كان حضوره زيادة في فخر الحانوتي، و"أم الخير" التي كانت تقف بالخارج، ومن حولها العديد من نساء وفتيات القرية وقد تداخلت زغاريد البعض مع تصفيقهن الحاد، وهناك من يقبل خد "أم الخير" ويهنئها، وهناك من ينزوي بعيداً، وقد تهامست

أصواتهن: أهذا عدل؟ كي يصبح لهذه الساحرة ابن يعمل طبيباً.

. أي ساحرة يا "سميرة" ماذا تقصدين؟

. أقصد "أم الشر" ألا تعلمين أنها تعمل بالسحر والشعوذة؟

وتقول أخرى: أجل.. أنا أعلم ذلك من زمن.. ويعلم الكثيرون عن هذا أيضاً.. زغردوا.. زغردوا فهي تنظر إلينا..

وفجأة !!! امتدت العيون نحو تلك السيارة الفارهة التي كانت تقاوم الوحل، وهي تترنح كعادتها، ومن خلفها بعض الفلاحين يدفعونها من الخلف وقد طبعوا كفوفهم الملطخة بالطين فوق جسم السيارة وكأنهم يخشون عليها من الحسد.

أوقف الدكتور "صالح" سيارته بالقرب من العيادة بعد أن قال له

أحد الفلاحين: ها هي عيادة الدكتور "عصام" يا باشا.

غادر الدكتور "صالح" السيارة، كذلك ابنته "هدى" التي عندما شاهدتها السيدات والفتيات فتحن أفواههن جميعاً، وساد الصمت بالمكان، فقد كانت ترتدي فستاناً لامعاً بدت من خلاله أنها جوهرة متلألئة، عيناها واسعتان كبحيرتين عميقتين، يبدو على سطحيهما اخضرار الأشجار وبياض سحب السماء، وشعرها الأسود اللامع مسترسل على كتفيها، وعلى وجهها الدائري الأبيض ابتسامة خجولة رسمتها عندما لاحظت أن جميع الأعين تسلطت عليها.

بعدها استيقظن من غيبوبتهن وهمست سيدة

لأخرى: ما هذا الجمال؟ وكأنها ممثلة خرجت الآن من شاشة تلفاز العمدة.

. صدقت.. ولكن ما سر هذا الشعر اللامع الطويل؟...أهي تضع فوقه جازاً مثلنا؟

. أجل ولكنه جاز مستورد من الخارج.

وهناك من كانت تنظر "لهدى" وتلقي نظرة على يديها فليس بيديها حفر ولا شقوق كيف فعلت هذا؟ كما أن ما بدا من جسدها كأنه مدهون بالزبدة أو القشدة.

دخل "صالح" وابنته العيادة، وما إن شاهدهما "عصام"، وإذ بالدم يتجمد في وجهه

فهو أرسل الدعوة لأبيها وحده، ولكنه لم يعلم أن "هدى" من استلمت الدعوة وطلبت من أبيها الحضور معه بحجة أنها مشتاقة لزيارة أجواء الريف.

وبصورة تلقائية مد يده وعاد بها مرة أخرى قبل أن ينزع طاقية أحد الفلاحين عن رأسه، فقد ظن للحظات أنها طاقية الإخفاء التي ستخفيه من المكان، بينما تقدم "صالح" وألقى التحية على الجميع

وقال: مبروك يا دكتور "عصام" ثم نظر لابنته

وأكمل: أقدم لك تلميذي الدكتور "عصام"، كان زميلاً لك بنفس الجامعة

مدت "هدى" يدها، وأحنت رأسها كالتي تنظر في مرآة، في وقت قد اتسعت ابتسامتها، فيد "عصام" باردة كقطعة من الثلج.

قال عصام: وهذا أبي الحاج "عوض" حانوتي هذه القرية، ثم نظر لأبيه

وأكمل التعارف: وهذا الدكتور "صالح" يا أبي أحد أساتذتي بالجامعة، فصافح "صالح" الحانوتي، كذلك ابنته، بعدها

قال الحانوتي: تعال.. تعال يا دكتور "صالح" نجلس بعيداً ونترك الأطباء في أحاديثهم الطبية.

رد صالح: حسناً.

جلست "هدى" بجوار "عصام" وقد علت التصفيقات والزغاريد أكثر من ذي قبل حتى شعرت "هدى" أنها عروس بجوار عريسها حيث استغلت "هدى" حالة الفوضى وقالت: مفاجأة أليس كذلك؟

رد عصام بخجل: أجل هي حقاً مفاجأة.

. ولكن يبدو أنها ليست سارة، وإلا أرسلت لي دعوة أنا أيضاً

ثم نظرت في عينيه نظرة عتاب

وأضافت: أترسل الدعوة لأبي.. دون أن ترسل دعوة لحبيبتك يا "عصام"؟

رد عصام: آسف.. ولكني لم أشأ أن تريني بهذا المنظر الذي قررت أن أظهر به أمام أهل قريتي

قالت "هدى": إن هذا المنظر هو ما تمنيته يوم أحببتك، وهو الذي قرب المسافة بيننا حتى شعرت الآن أنني أقف أمام باب بيتك يا "عصام" أم أنك نسيت ما اتفقنا عليه؟

. لا أبداً لم أنس.. ولكني خائف.

تنهدت "هدى"

وقالت: من أي شيء تخاف؟

. أخشى عليك من الندم.. عندما يعلم زملاؤك أنك تزوجت من ابن حانوتي القرية.

كما كيف ستقنعين والدك بهذا الزواج؟

قالت هدى بشيء من الضيق: لقد تحدثنا كثيراً في هذا الأمر، وقد سبق أن قلت لك أنه لا فارق بين الدكتور والحانوتي فكلنا أبناء آدم وحواء، ولا يهمني ما يقوله زملائي، وسبق لي أيضاً وأن قلت لك، تقدم أنت فقط واترك لي أمر والدي.

لم يجب "عصام" بينما عادت "هدى"

وداعبته: ها ستتقدم، أم أذهب إلى أبيك وأطلب منه يدك الآن؟

ابتسم عصام وقال: أحبك.

ردت هدى: وأنا مدفونة في حبك يا ابن الحانوتي.

لم يكن يعلم "صالح" أو الحانوتي عن قصة حبهما التي بدأت منذ عام تقريباً عندما لاحظت "هدى" نظراته البراقة تُغني عن أي كلمات وتعكس مشاعر الحب والإعجاب بدون الحاجة إلى الكلام لذا وجدت "هدى" نفسها تبادله النظرات وتبحث عنه حينما يغيب عن الوقوف أمام القسم الذي كانت تدرس فيه.. حتى سألت نفسها.. لمَ هو بعيد هكذا؟.. لمَ وضع بيني وبينه مسافة بالرغم أنه قريب مني؟ ولم يستطع أن يداري حبه كما الزجاج الشفاف الذي لا يستطيع أن يداري أشعة الشمس، لذا لجأت "هدى" لحيلة قديمة حينما اقتربت منه، ورمت كتبها أمام قدميه، وعندما انحنى هو وانحنت هي معه لجمع الكتب المبعثرة،

قالت وهي تنظر لعينيه: هكذا تبدأ قصص الحب في الأفلام، كما بدأت معنا الآن.

كانت ضحكاتهما الخافتة ما هي إلا إعلاناً بموافقة كل منهما على السير ممسكاً بيد الآخر.. بعدها علمت عن سر خوفه من الاقتراب منها ببداية الأمر، فهو ابن حانوتي وهي ابنة لدكتور جامعي، أي لابد أن يكون خائفاً بالفعل، فهناك فارق شاسع بينهما، كالمسافة بين الأرض وعنان السماء على حد وصفه، ولكنها تحاول منذ عام أن تنزع هذا الخوف من قلبه، أن تعمي عينيه عن تلك المسافة مادام سيصبح طبيبا كما هو الآن، ومادامت هذه الأرض وتلك السماء من صنع إله واحد.

صدمة

باليوم التالي

استيقظ "عصام" عندما تسللت شمس الوجود لغرفته، ووقف وراء النافذة لينظر بشرود، فهو لا يسمع أصوات الحيوانات وهي تتداخل مع طرق حوافرها بينما هي بطريقها إلى الحقول، ولا يرى هؤلاء النساء وهن يلتقطن فضلات الحيوانات عن الأرض.. بل كان يفكر في هذا الخوف الذي يحتله من كل شيء من العمل كطبيب، من التقدم لخطبة "هدى".

فجأة!! اتجه إلى غرفة أبيه، وعندما قرر أن يطرق الباب، تراجع مرة أخرى، ثم تنهد معلناً عجزه عن التفكير، فهو على يقين أن أباه سيوافق حتماً على خطبته "لهدى" فهو ليس لديه ابنة خال، أو ابنة عم، كي يرفض أبوه أو أمه، أي ليس هناك مانع من هذا الشرف الكبير، ولكن لو اصطحب أباه، ورفض الدكتور "صالح" كيف سيتحمل أن يراه بهذا الحال أمام الدكتور "صالح"؟

لذا قرر "عصام" أن يذهب بمفرده من أجل خطبتها، وإن رفض الدكتور، فأبوه ليس معه، وإن وافق وأراد "صالح" مقابلة أبيه فسيصطحبه لإتمام كل شيء.

خرج "عصام" من البيت، واتجه لدكان "شحاتة" وبعد أن أحضر موساً للحلاقة عاد مرة أخرى قاصداً دورة المياه، ولكنه وجد أمه أمام باب دورة المياه تصيح على أبيه وهو بالداخل.

. ألم تنته بعد؟

. لا ليس بعد.. تعالي بعد خمس دقائق.

ضحك "عصام" وبادلته أمه الضحكة

وقالت: لا أعرف.. فقد تبول أبوك كثيراً هذه الليلة، وأكل وشرب كثيراً، فاحذر يا "عصام" فربما أكلنا نحن الآخرون.

أعاد "عصام" نفس الضحكة، بعدها

سألته أمه: ما بك أنت الآخر يا عصام؟.. فمنذ أن أنهيت دراستك لم أرك مستيقظاً بهذا الوقت؟

. لا شيء يا أمي.. أردت أن أذهب للمدينة من أجل زيارة زميل لي قبل أن يسافر لعمله بالقاهرة بعد ساعتين من الآن.

خرج الحانوتي من دورة المياه، وأعاد عليه "عصام" نفس الرد، وبعدما خرجت الأم، حلق "عصام" شعر ذقنه، ووضع عليه العطر، ثم دلف إلى غرفته وارتدى بنطاله الأسود، وقميصه المخطط، وغادر البيت.

استقل "عصام" سيارة الأجرة، بعد ترددٍ طال وقته، فقد أراد أن يذهب من خلال طريق المقابر، من أجل قراءة الفاتحة لأخته "صابرين" التي ماتت قبل أن يولد ولكنه تراجع فالطريق طويل، والأرض مازالت تشكو من طبقات الوحل التي تعلوها.

أمام بيت الدكتور "صالح" وقف "عصام" للحظات وهندم قميصه، وأزال بقع الطين عن طرفي بنطاله، وعندما اقترب من باب الشقة التي يمكث فيها الدكتور وابنته، تسارعت دقات قلبه بشدة وكأن قلبه أراد أن يتحرر من خلف قضبان ضلوعه ويقول له: لا بل واجه هذا الموقف بمفردك يا "عصام".

رن "عصام" الجرس بيد مرتعشة، وجبهة يعلوها قطرات من العرق، وعندما فتحت "هدى" الباب تجمدت مكانها، وأخذت عيناها تضيق وتتسع كعيني الأشباح

بعدها تساءلت بهمس: أجئت الآن لتخطبني.. أم من أجل شيء آخر؟

قال عصام قلقاً: أجل لقد جئت لخطبتك.

. ولكن أين العم عوض؟

لم يجب "عصام"، فقد صاح الدكتور "صالح" على ابنته من الداخل

. من يا هدى؟

رفعت "هدى" صوتها: إنه الدكتور "عصام" يا أبي.

لحظات وخرج الدكتور "صالح"، وصافح "عصام"، وهو يتثاءب

ثم قال بصوت ناعس: تفضل.. تفضل يا "عصام" من هنا.

دخل "عصام" خلفه حجرة الصالون، بينما أمر الدكتور "صالح" ابنته بإعداد كوب من الشاي.

اتجهت "هدى" صوب المطبخ وقد تمنت أن ترمي بأذنها على أحد المقاعد، لتستمع لما يدور بين أبيها وذلك الحبيب الذي جاء لخطبتها صباحاً وكأنه جاء لخطبة بائعة اللبن

قال صالح: خيراً يا عصام؟.. ألم تفتح عيادتك اليوم؟

. لا.. يوم الجمعة إجازتي يا "دكتور".

ضحك "صالح" ضحكة رنانة

وقال: أي إجازة يا "عصام" إنك لم تعمل ليومٍ واحدٍ حتى الآن.

سكت "عصام" طويلاً، وكأنه أمام قاموس اللغة العربية، ويبحث عن أول كلمة مناسبة، ليبدأ بها هذه المهمة الصعبة، بعدها تنهد "صالح" بشيء من الضيق

وقال: خيراً يا "عصام".. فأنا لم أنم إلى الآن يا ولدي.

فجأة أخبره عصام بلا مقدمات أنه جاء هذا الصباح، من أجل خطبة ابنته هدى.

سكت "صالح" لثوانٍ أخذ يمد فيها شفتيه للأمام، وهو يدقق النظر في هذا الذي أمامه وكأنه نقطة سوداء أراد أن يراها في الظلام، أما "عصام" فقد كان ينتظر الرد وهو مبتسمٌ ابتسامة حسبها "صالح" أنها ابتسامة ثقة، دون أن يعرف أنها ابتسامة خوف كتلك التي يبتسمها القرد في حديقة الحيوانات عندما يشعر بالناس تحوم حول قفصه.

تأخر رد "صالح" حتى دخلت "هدى" بكوب الشاي، عندئذ قال لها

أبوها ساخراً: الدكتور "عصام" جاء من أجل خطبتك.. فما رأيك؟

ابتسمت هدى ولم تنطق إلا بكلمة واحدة: موافقة.

شعر "صالح" أن هناك قصة حب قديمة بينهما، وأن تصميم ابنته على حضور افتتاح عيادته ما هو إلا لهفة منها لتراه في هذا اليوم ولكن كيف سيوافق على هذه الخطبة. فأبوه حانوتي، وليس كأي حانوتي، بل إنه أقذر مخلوق تعامل معه.

كيف يأتمنه على ابنته، وهو لا يؤتمن على عظام الأموات؟

أشار صالح بيده نحو الباب

وقال: إلى الخارج يا "عصام" إنك لم تأت.. ولم أسمع منك أي شيء.

نظر "عصام" لحبيبته نظرة معاتبة وكأنه يقول

لها: ألم أخبرك.. أنه لا فائدة من هذه الأحلام؟

ثم سابق الريح، نحو الباب وغادر دون أن تصدر حنجرته أي كلمة تاركاً إكمال هذا المشهد الدرامي "لصالح" وابنته "هدى" التي

صاحت: لمَ يا أبي؟

.لأنه ابن حانوتي.

. ولكنني أحبه منذ عام.

. سيموت هذا الحب ويدفن مثلما تموت الناس ويدفنها أبوه.

. هل هناك فارق بينك وبين أبيه أمام الله؟

لم يجب "صالح".

والحقيقة ليس هناك أي فارق بينهما فكلاهما مجرمان لا فارق بينهما وبين الخنازير التي تعيش بالوحل، ولا تمانع أن تأكل الميتة. ولا يصح لهذه الوداعة أن تقترب من بيت خنزير آخر يكفي هذا الذي تقطن معه في بيت واحد.

رفعت هدى صوتها أكثر: أجبني ما الفارق بيننا وبينهما؟

. الفارق أن الله قد خلقنا درجات، وهم ليسوا بنفس الدرجة التي خلقنا الله عليها..

. ولكن هناك حالات استمرت بها الحياة الزوجية بالرغم من عدم التوافق الاجتماعي . أعرف ذلك ولكنها في الأفلام فقط.. حتى في الأفلام قد نشاهد بنت السلطان تزوجت من ابن الخادم، ولكننا لم نشاهد من قبل أنها تزوجت ابن الحانوتي.

صرخت هدى: ولكن إذا استمررت على رفضك، فسأتزوجه رغماً عنك.

ابتسم أبوها في وجهها بحسرة، وقد أشارت عيناه لها وكأنه أراد أن

يقول: إن استطعت فافعلي ذلك بمن استغنى عن متع الحياة من أجلك، وعاش سنوات طويلة رافضاً أن يأتي لك

بزوجة أب يا "هدى". لذا اقتربت "هدى" من أبيها، وقد أحنت رأسها، قبل أن تحتضنه وتبكي على صدره

وتقول: آسفة.. آسفة يا أبي.. ولكني أحبه بالفعل.

ربت صالح على كتفها: هذا لا يعني أن دربكما لابد أن يصبح نفس الدرب يا ابنتي فالطيور في السماء والأسماك بالماء لا يسيرون بنفس الدرب إلا أن يكونوا لوناً واحداً، أو أن يكونوا حجماً واحدا وهذا ليس من لوننا أو حجمنا يا "هدى".

بؤس

عاد "عصام" لبيته، ودخل غرفته دون أن ينطق مع أمه بكلمة واحدة وكأنه لم يرها، أو كأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي، ثم أبدل ملابسه، وتمدد على فراشه، ونظر للسقف لعله يسقط الآن فوقه وتنتهي حياته على الفور.

دخلت "أم الخير" غرفة ابنها، وأمسكت الغطاء ووضعته على جسده

وهي تقول: ما بك يا "عصام" ألا تشعر بالبرد؟

أزاح "عصام" الغطاء عنه بإعياء شديد، وكأن كل ما فيه مهشم كالذي سقط من فوق مكان مرتفع، ذلك المكان الذي فور ما وصل إليه دفعته يد "صالح" ليسقط على التو أرضاً، ولم يجن من هذا سوى الآلام والأوجاع.

أردفت الأم: ما بك يا "عصام"؟.. أرى وجهك مثل غيوم الشتاء يا ولدي.

لم يجب عصام، وبالكاد أدار جسده ناحية الجدار، وهو يضع يده تحت رأسه بكمد لم تعهده أمه من قبل.

خرجت "أم الخير" من الغرفة، واتجهت صوب دورة المياه وطرقت الباب

وصاحت: أنت أيها الرجل.. ألم تلد بعد؟.. تعال لترى ما الذي حل بابنك.

خرج "الحانوتي" سريعاً من دورة المياه، وعلى قدميه قطرات من البول، ثم اتجه صوب غرفة ابنه

وقال بقلق قل ما شعر به من قبل: ما بك.. يا عصام؟.. ما الذي حدث يا ولدي؟

لم يتمالك نفسه، وأجهش بالبكاء، ثم هم من مرقده ووضع رأسه على صدر أبيه بينما كانت أمه تتنصت بالخارج.

ربت الحانوتي على ظهر ابنه

وأعاد بهدوء: أخبرني يا ولدي ماذا حدث؟.. لقد أخبرتني أنك غادرت لتودع صديقك قبل سفره.

رفع "عصام" رأسه عن صدر أبيه، وجفف دموعه، وحاول أن يتماسك

وهو يقول: لا.. يا أبي.. لقد كنت بطريقي إلى خطبة إحدى زميلاتي بالجامعة.

قال الحانوتي مندهشاً: خطبة.. أذهبت لتخطب من غيري يا "عصام" هل تبرأت أخيراً من أبيك؟

أحنى عصام رأسه وقبل يد أبيه ولم يرفع وجهه

حتى قال: لا يا أبي.. فقط كنت أخشى عليك من هذه المقابلة، فقد رفض أبوها وطردني من بيته.

سأل الحانوتي في ضجر: من هذا الذي طردك.. من؟

رد عصام: الدكتور "صالح" المدرس الجامعي.

كان هذا الخبر بمثابة رصاصة أطلقت على قلب الحانوتي، ولكنه تماسك ولم يعبر وجهه عن أي شيء، ولكن إن لم يتوفر هذا الدواء فلمَ لا يبحث الحانوتي عن دواء بديل ربما سد هذا الجرح العميق الذي بدا تماماً في قلب ابنه..

لذا سأله: أليس من الأفضل أن تخطب أي فتاة غيرها يا ولدي؟

رفع عصام يده وكأنه أراد أن يدخل هذه الجملة مرة أخرى في فم أبيه ولا ينطق بها مجدداً.

ثم قال: لا.. لا يا أبي.. لقد أحببتها منذ عام، وهي أيضاً من حاربت خوفي، وقللت المسافة بيني وبينها، حتى جاء هذا اليوم.

. أفهم من ذلك أنها تحبك بالفعل؟

. أجل يا أبي كما أحبها أنا.

. ولكن لمَ لم تخبرني عن ذلك من قبل؟

. كنت أنتظر حين تخرجي.. وها قد تخرجت، وتقدمت وتم طردي

اتجه الحانوتي صوب شرفة غرفة ابنه وشرد، وأخذ يبحث عن طريقة لحل هذه المشكلة، فهو لا يطيق أن يرى ابنه هكذا،

ولن ينتظر حتى يدفنه بيده كما دفن أخته من قبل، إذاً لا حيلة أمامه سوى تهديد "صالح" وإجباره على الموافقة رغماً عنه أو اللجوء لقتله.

أجل.. فقد خطط الحانوتي لقتل "صالح" الذي لم يكف عن محاولة خداعه إلى الآن.

كما أنه بحاجة إلى دفن سره، ولكنها كانت مسألة وقت حتى يجمع المزيد من النقود، ولكنه الآن يرى أن مكانة ابنه في قلبه أغلى من كنوز الكون، فإن كان صالح سيقتل آجلاً، فلا مانع الآن من قتله عاجلاً.

عاد الحانوتي وقال لابنه: اترك لي هذه المهمة يا "عصام".

ارتسم على وجه عصام الأمل مرة أخرى، وكأنه غريق تعلق الآن بقشة، ولكن هل يستطيع أبوه أن ينجيه من الغرق في بحر الحزن هذا بعد أن رفض صالح؟

لذا سأل: ولكن ماذا ستفعل يا أبي.. فقد رفض الرجل؟

رد الحانوتي: لا شأن لك بأي شيء.. ولكني من الآن أعدك أنها ستكون من نصيبك.

ثم أوصاه بمراعاة عمله وعيادته، ولن تمر عدة أيام حتى ينتهي رفض أبيها للأبد.

خرج الحانوتي من الغرفة، وقد كانت زوجته على الباب، اتجه صوب غرفته وزوجته خلفه كظله.

تمدد على السرير، وقد شبك يديه خلف رأسه، ونظر للسقف، وحدث زوجته دون أن ينظر لها حيث

سألها: أسمعت؟

ردت أم الخير: أجل سمعت.. ولكن ماذا ستفعل؟

. لا شيء.. سأهدده.

. ولكن كيف تستطيع تهديده.. أنسيت أنك شريك معه في كل جريمة؟

. لا لم أنس.. ولكن هؤلاء يخشون على مراكزهم، وسمعتهم أمام الناس، لذا سيتراجع عن موقفه حتماً فور تهديده.

. وإن لم يتراجع؟

عندئذ قاطع صوتهما صراخ حاد بالخارج، ثم يد تدفع الباب بقوة وتتجه إلى الداخل إنها زوجة "أبي محمد" الجديدة، بشعرها المنفوش، وجلبابها الممزق

تصيح: أدركوني من هذا المجنون.. سيقتلني.

خرج "عصام" من غرفته، وبالكاد استطاع أن يمسك قطعة حديدية كانت بيد "أبي محمد"

ثم قال بذهول: اذكر الله يا " أبا محمد".. ماذا جرى؟.. لم يسمع أحد صوتك من قبل

صاح أبو محمد وهو يحاول الإفلات من قبضة عصام

. إنها زوجة مهملة لم تقم بتجهيز الفطور يوماً منذ أن تزوجتها وعندما تغسل الملابس يزيد اتساخها وكأنها تغسلها بالطين.

ردت الزوجة الجديدة نافية: لا بل.. مد نظرك إلى حبل الغسيل يا دكتور "عصام" أو اذهب إلى البيت، ستراه يكذب في كل ما يقوله.

ابتسم عصام وهو ينظر لوجه أبي محمد ابتسامة تشبه قطرات من الماء البارد لعله يستطيع أن يطفئ النار التي بدت في وجهه الملون باللون الأحمر

ثم قال لها: لا عليك يا "سماح".. اذهبي الآن إلى بيتك

حيث وجه حديثه إلى أبي محمد: أما أنت فستمكث معي في غرفتي إلى حين صلاة الجمعة.

بينما اتجه الحانوتي ناحية الباب، وبصوته الأجش صاح على هؤلاء الفلاحين الذين تجمعوا من أجل مشاهدة تلك المسرحية

قائلا: هيا... كل فرد إلى بيته.. لعنة الله عليكم جميعاً، ثم عاد متجهاً ناحية زوجته

وهمس لها: أيعجبك ذلك الآن.. لابد أن هذا السحر مكتوب فيه قلة راحتنا أيضاً يا "أم الشر".

يوم الجريمة

مرت أيام قليلة، وجاء يوم الثلاثاء

وعلى الرغم أنه اليوم الرابع الذي مارس فيها "عصام" مهنة الطب إلا أنه ما زال قلقاً، عندما تأتيه أي حالة وترقد على سرير العيادة، ويقوم هو بالكشف، أي أنه يقيس الضغط، ويتفحص الحرارة فقط فتلك هما الحالتان اللتان يستطيع تشخيصهما وكأنه لم يدرس غيرهما بالجامعة، أما غير ذلك، فليس مقرراً عليه أو أنه ملغي، حيث يقوم بتحويل المريض إلى أحد أطباء المدينة، وليس إلى أطباء الوحدة الصحية، فهم في الغالب مثله، لا يفقهون سوى القليل عن هذه المهنة، إذ أنهم يكتبون دواء واحداً لجميع الأمراض سواء كان المريض يعاني الصداع، أو الإسهال، أو ضربة شمس، أو يعاني السعال وضيق التنفس.

بعد أن غربت شمس هذا اليوم، وأعلن الكون عن موت يوم، ومولد ليلة جديدة اتجه الحانوتي إلى أطراف المدينة، هناك في الوكر المخصص له و"لصالح".

فهو لا يستطيع الذهاب إلى بيته. فقد أمره "صالح" بهذا، وإلا تشككت ابنته في أمرهما، فابنته لا تعلم عن العلاقة التي تربط بينهما منذ سنوات، وكذلك "عصام"

يظن أن علاقة أبيه بصالح لم تبدأ إلا منذ أيام فقط..

فتح الحانوتي الشقة بمفتاحه الخاص، وانتظر قدوم "صالح"، أو إحدى الساقطات اللواتي اعتدن الحضور في مثل هذه الليلة من كل أسبوع.

كان الحانوتي يسلي نفسه بأكل السوداني والترمس، واحتساء زجاجات الخمر المتراصة في درج الثلاجة. حتى مرت الساعات، ولم يأت "صالح"، أو أي ساقطة من هؤلاء، وكأن "صالحاً" يعلم أن الحانوتي سيأتي هذه الليلة فقط ليتحدث بذلك الموضوع، ويبدو أنه أعطى للنساء إجازة هذه الليلة على غير عادته.

غادر الحانوتي الشقة بعد انتظار طال وقته، وربما

قال لنفسه: لا بأس فالليلة القادمة هي موعد إتمام الصفقة الجديدة، وسيأتي بنفسه للمقابر، ولن يستطيع التهرب.

استقل الحانوتي سيارة الأجرة واتجه إلى قريته، وعندما وصل لبيته. استوقفه عصام وهو بطريقه كعادته الجديدة إلى الحمام

وسأل: ماذا فعلت لي يا أبي في أمر خطبتي.. فقد مرت الأيام منذ أن تحدثت معك ووعدتني.

رد الحانوتي وهو يتلوى: اصبر.. اصبر يا "عصام" لأيام قليلة قادمة

ثم دخل الحانوتي الحمام، ولم يستطع أن يمسك نفسه، فقد تبول على الجدار مثل الكلاب، وخرج متجهاً إلى غرفته بإعياء.

سألت أم الخير: أين كنت يا "عوض" أشعر أنك تلعب بذيلك؟

ابتسم الحانوتي: أي ذيل هذا أيتها المجنونة، فقد كبرت ولم يعد لي أي ذيل حتى أنني أفكر في أن أشتري حماراً، فقد أصبح المشوار للمقابر في شدة الإرهاق بالنسبة لي، كما أصبحت بحاجة إلى صبي لمساعدتي في نقل الجثث والعظام.

انتفضت أم الخير: كيف؟.. أتريد أن يطّلع هذا الصبي على أسرارك؟

. لا.. فلم يعد هناك أسراراً يا "أم الخير"

. كيف.. والجماجم التي تبيعها.. والأعمال السفلية التي تضعها في أفواه الموتى والدكتور "صالح".. ماذا عن كل هذا؟

. سنعتزل هذه الأمور نهائياً، فابننا أصبح طبيباً، ويجب أن نخشى على سمعته أما عن الدكتور "صالح" فربما سيموت غداً

سألت أم الخير في دهشة: كيف؟! !!!!!!!!

لم يجب الحانوتي، وأعطاها ظهره، كما أعطى ظهره للنقود من أجل سمعة ابنه وسعادته مع تلك التي يحبها وتحبه.

تخيل الحانوتي أن "صالحاً" سوف يخضع لتهديده، وسيوافق سريعاً على إتمام الخطبة، ولكنه كان يتمنى ألا يوافق مهما تكن التهديدات، فربما أراد أن يعطي لنفسه الحق لقتله، ودفنه ودفن سره معه ليبدأ حياة أخرى كريمة خالية من الأعمال السفلية وبيع الجماجم.

في الصباح.. ذهب "عصام" كعادته للعيادة، وخرجت "أم الخير" للتسوق، على الرغم أنها ليست بحاجة إلى ذلك، فقد أرادت فقط أن تقابلها النساء بالصباح

ربما قالت إحداهن: صباح الخير يا أم الدكتور، أو اشتكت أخرى من أوجاع أو آلام، لتحدثها "أم الخير" عن براعة ابنها ومهاراته في تشخيص، وعلاج ذلك.. أي أنها خرجت من أجل الشعور بعظمة الأم المثالية، والدعاية لابنها فقط.

في هذا الوقت كان الحانوتي يجوب القرية بحثاً عن حمار يشتريه وحمار آخر يعمل معه كصبي حانوتي، وعندما أخبر "شحاتة" البقال عن ذلك، أجابه "شحاتة" أن "حمدان" سيذهب لبيع حمارته البيضاء غداً بالسوق، ونصحه أيضاً

"بأحمد ابن بهانة" للعمل معه كصبي، فهو عاطل عن العمل ويجلس ليلاً ونهاراً في قهوة "سعدون "، لا يشغله أي شيء سوى النظر إلى "مستورة" بائعة الخضار.

اتجه الحانوتي تجاه بيت "حمدان" ذلك الرجل الذي طاردته الجنية من قبل، حمد الحانوتي الله، فلم يكن "حمدان" قد ذهب إلى حقله حتى الآن

قال الحانوتي: سمعت أنك ستذهب غداً للسوق من أجل بيع حمارتك

. لا.. فقد تراجعت عن هذا يا عم "عوض"

. لمَ؟ سأشتريها منك بضعف ثمنها، وسأعطيك مئة جنيه.

بلع "حمدان" ريقه عندما سمع هذا المبلغ ولكنه عاد

متسائلاً: ولكنك لا تمتلك شبراً من الأرض.. فلمَ الحاجة إليها؟

. سأمتطيها من أجل الذهاب للمقابر.. فأنت تعلم أن الطريق طويل.. ولم أعد أطيق السير يا "حمدان".. وكثيراً ما تطاردني الجنية، ولم أحتمل العدو أمامها.

قال حمدان بعد أن تلفت حوله سريعاً: أهي ظهرت لك أنت الآخر؟!

. أجل.. ها هل بعتها لي بهذا المبلغ؟

. لقد بعتها لك يا عم "عوض".

امتطى الحانوتي الحمارة، وبينما هو بطريقه للبيت، إذ "بأحمد ابن بهانة" يجلس بقهوة "سعدون"، وينظر بغيظ "لحسان" وهو يداعب "مستورة" بائعة الخضار تلك التي كان يعشقها "أحمد ابن بهانة" ورفضته قبل ذلك وربما ستعلن

قريباً عن خطبتها "لحسان" الخفير، لذا كان يبدو على وجه ابن "بهانة " أنه على وشك الهجوم عليه ليفتك به.

وفي الحقيقة هو يستطيع فعل ذلك، فإنه كالفيل الأفريقي في وزنه وقوته أيضاً ومن يراه يشعر أنه يتعرق "سولار" كالذي تدار به ماكينات الري

نادى الحانوتي: أحمد.. يا أحمد.

هرول "أحمد" تجاهه وهو يضع طرف جلبابه بأسنانه.

قال الحانوتي: أتعمل معي؟

. أجل... لا مانع عندي.

. سأعطيك عشرين جنيهاً شهرياً.. ولكن بشرط

. ما هو؟

. أن تتحلى بالأمانة.

. إنها رأس مالي يا عم "عوض".

. حسناً.. موعدنا الأسبوع القادم مثل هذا اليوم.. في تمام الساعة العاشرة ليلاً لنذهب سوياً للمقابر.

لم ينس الحانوتي أثناء عودته شراء "منجل" أسنانه حادة، ورأسه مدبب بدا أنه يخترق الحجر ذاته، وليس صدر "صالح" فقط.

عاد الحانوتي إلى بيته، وربط الحمارة بالحديد الخاص بالنافذة من الخارج.

فبعد هذه السنوات من التجارة بالجماجم اشترى أخيراً حمارة، وليست سيارة مثلاً كتجار المخدرات الذين يظهر عليهم النعيم في غمضة عين.. وهذا أيضاً ما أشارت به زوجته وهي تضحك فور ما أخبرها زوجها عن هذا الأمر، ولكنها انقطعت عن ضحكاتها عندما شاهدته يدس "المنجل " بجلبابه الذي سيرتديه ليلاً حيث قالت: ما هذا؟

. كما ترين إنه منجل.

. وما حاجتك إليه يا "عوض".. أأنت فلاح وهناك حيوانات تجمع من أجلها البرسيم؟

. لا.. ولكني أرى أنني سأحتاجه هذا الليلة.

. هل قررت قتل صالح؟

. أجل. إن قرر هو تعجيل أجله.

. يبدو أنك تريد الانتحار، وتقضي على مستقبل ابنك.. كيف ستفلت بجريمتك؟

. لن يشعر أحد أنه مات يا "أم الخير" اطمئني.

داخل مقبرة العائلة

عندما اقتربت الساعة من منتصف الليل، أزاح عوض ذراع زوجته كالعادة

ونهض عن الفراش، وأبدل ملابسه.

اتجه إلى غرفة "عصام" فوجده نائماً وقد مات الكون من حوله. خرج وامتطى الحمارة، وأسرع إلى طريق المقابر.. كانت الحمارة تسير بخطوات معتدلة، تهز ذيلها وكأنها فرحة حيال اعتزال الأعمال الشاقة التي كان يكلفها بها "حمدان" وصلت "الحمارة" بالقرب من المقابر، وإذ بها وقد أبطأت من سرعتها، وكأن هناك من يشد ذيلها من الخلف، وعندما ربطها الحانوتي بإحدى الأشجار المقابلة لشوارع المقابر، انتصبت أذناها وكأنها تستمع لحديث شخصٍ يجاورها ولكنه أخفى نفسه عن أنظار الحانوتي الذي أخذ يتجول كعادته داخل الشوارع ولكنه لم يفتح أي مقبرة حتى الآن.

فجأة !!! وكأنه سمع هاتفاً يهمس بأذنه

ويقول: كيف لك التخلص من سيارة "صالح" يا "عوض".. فأنت لا تجيد القيادة لكي تتركها تحت أي كوبري بالمدينة، ولو دفعتها بالترعة، لن يغطيها منسوب المياه.

ولكن يبدو أن "صالحاً" يريد الموت، فقد جاء هذه الليلة بالذات سيراً على قدميه ووقف على بعد خطوات من المقابر

وصاح: يا "عوض".. في أي شارع تجلس؟

رد عوض بعد أن أشعل الكشاف: أنا هنا يا "صالح".. أين سيارتك؟.

أجابه صالح ومازال بمكانه: السيارة معطلة.. وقد تركتها أمام العمارة وجئت كل هذه المسافة سيراً على أقدامي.

سريعاً فتح الحانوتي مقبرة عائلته الصغيرة التي دفن فيها "صابرين" من قبل ولكن "صالحاً" لم يتقدم إلى الآن.

صاح عوض: أين أنت لمَ لا تتقدم.. ألم ترضوء الكشاف؟

رد صالح: أجل أراه ولكن ما هذا الحمار يا "عوض"؟

ضحك الحانوتي ضحكة مرعبة وقال: تعال تعال يا صالح فإنها حمارتي وليست عفريتاً.. هيا تعال.

تقدم "صالح" هذه المرة وهو يشعر بالخوف من أن تمسك به يد أحد الموتى وتدخله أحد المقابر، وعندما وقف أمام الحانوتي

قال: ها.. هل جهزت البضاعة؟

لم يجبه الحانوتي، بل أخذ ينظر له نظرات حادة اخترقت ما بداخله وكشفت عما به من رهبة وضعف، بعدها

قال: لمَ قمت بطرد ابني يا "صالح"؟

رد صالح بصوت خافت: أعلمت ماذا طلب مني؟

. أجل علمت.. وما المانع من ذلك؟

سكت "صالح" للحظات، ولكنه عاد بشيء من

الخجل: ولكن لا يصح أن يرتبط الحانوتي بدكتور جامعي.. وأنت تعلم ذلك

بدأ الشرر يتطاير من عيني الحانوتي، لذا رد

بصوت جهوري: لمَ لا يصح؟.. فأنت مجرم، وأنا أيضا؟

. كيف؟!!!!!!

. هل تعتقد أني أبله.. إنني أعلم جيداً أنك تتاجر بالمخدرات ولست بحاجة إلى أي أبحاث طبية وإلا اكتفيت بجمجمة واحدة أو اثنتين.

ازداد الخوف على وجه "صالح" وتسارعت دقات قلبه، وبدأ العرق يتصبب على وجهه الخائف حيث قال بصوت متحشرج: ماذا تريد يا "عوض"؟

. سأبلغ عنك المباحث، إن لم توافق على خطبة ابني لابنتك.

رد صالح: أتهدد أخاك يا عوض؟

. أجل.. وأهدد أبي أيضاً، قبل أن يصبح سبباً في شقاء ابني وموته.

وضع "صالح" يده على وجهه للحظات ثم أدار جسده

وقال وهو يغادر: لن أوافق يا "عوض".. تستطيع أن تبلغ عني الشرطة وتقضي على مستقبل ابني.. ولكنك بهذه الطريقة تبلغ عن نفسك وتضيع مستقبل ابنك أيضاً.

كان هذا ما أراده "عوض". بعدها هرول خلفه وطعنه بالمنجل في ظهره وحينما صرخ "صالح" واستدار لمواجهته، كانت الطعنة الثانية بصدره، أما الطعنة الثالثة فلم يقم بها الحانوتي، فهو لم ينس أن الدكتور كان سبب نجاح ابنه كل عام ولابد أن يكرمه الآن.

انبثقت الدماء من ظهره واختلطت بدماء صدره حتى بدا كأنه دجاجة مذبوحة ترتطم دون وعي بما أمامها.

كان "صالح" يترنح فيطرق على أبواب المقابر، وقد تهيأ له أنها بيوت بها سكان من الممكن أن يغيثوه، في وقت علا نهيق الحمارة وجلجلت صرخات السيدة المجنونة التي كانت تهرول فوق المقابر وهي تروح وتجيء.

وأخيراً افترش "صالح" الأرض دون أن تقوى حنجرته على إصدار أي صوت حيث أخذ الحانوتي كل ما كان في جيبه من مال، وجره بصعوبة نحو مقبرة عائلته، لكي يثبت أنه بالفعل أخوه وإلا ما فكر يدفنه مع ابنته "صابرين ".

بالكاد استطاع أن يدخله المقبرة بعد أن أخذت أنفاسه تتسارع وراء بعضها ولكنه لم يقو على دفنه في هذه الليلة فقد شعر أن الأمر سيصبح في منتهى الصعوبة بعد هذا الإجهاد الذي أصابه كما هو بحاجة أن يحفر له حفرة داخل المقبرة، ولا يضعه هكذا فوق الرمال مثل بقية الأموات.

أخذ الحانوتي يرمي برمال المقبرة فوق تلك الدماء المتناثرة، ليخفي أثرها نهائياً ثم امتطى الحمارة وغادر المكان.. كانت الحمارة تهرول وكأنها رأت العفاريت والأشباح وشاهدت أيضاً هذه الجريمة، فربما ظنت أنها استراحت من "حمدان" وتعذيبه لها حيال حرث الأرض وحمل الأثقال من القمح والذرة وفضلات الحيوانات، ولكنها حتماً ندمت الآن، ولن تستطيع أن تأتي إلى هنا مجدداً حتى ولو قتلها الحانوتي هي الأخرى.

وصل الحانوتي إلى البيت وربط الحمارة خارجه ثم اتجه لدورة المياه كالعادة، بعدها دلف لغرفته، ليجد زوجته تجلس فوق السرير

وتسأله: ها ماذا فعلت.. هل وافق؟

. لا

. إذا ماذا فعلت به؟

. قتلته طبعاً.

. وجثته؟

. وضعتها بالطبع داخل مقبرتنا.. ولكني سأذهب الليلة القادمة من أجل دفنه في قاع المقبرة، كي لا يتعرف عليه الصبي الذي دعوته للعمل معي.

سحبت "أم الخير" الغطاء على وجهها ونامت، واستراح الحانوتي أيضاً وحاول استدراج النوم، أما "صالح" فلم يسترح بعد، فجسد هذا الرجل يتقلب الآن داخل المقبرة كسمكة تتقلب بهدوء فوق صفيح ساخن.

فهل دبت فيه الروح مرة أخرى؟..أهذا يعقل؟

أجل.. فلم يكن قد مات من الأساس على الرغم من جراحه العميقة وتلك الدماء التي تناثرت بالشارع، والتي لم تكن تنبثق حتى من عنق ذبيحة العيد..

فتح الدكتور "صالح" عينيه وتوقفت جفونه عن الحركة بعد ذلك، وانسدت فتحات أنفه من أثر رائحة العطن.

وبذهول شديد حاول أن يخترق بنظره هذا الظلام الذي لم يستطع أن يخفي لون الأكفان الملفوفة حول جثث الأموات المحيطة به.

عندئذ أدرك أنه داخل المقبرة، ولكنه لا يعرف إذا كان ميتاً حقاً، أم ما زال على قيد الحياة، ولكن يبدو أنه حي وإلا قد وجد نفسه في حفرة من حفر النار.

حاول أن يصرخ ولكنه لم يقو على ذلك في حين كانت أعضاء جسده تعمل بسرعة قبل أن تتوقف نهائياً ويأكلها الدود، ولكن حلاوة الروح هي من جعلته يزحف بضعف نحو

الباب ذلك الباب الذي لم تتركه الأموات يصل إليه بهذه السهولة، فقد كانت تتعثر ملابسه برفات الأموات، وكأنها أرادت أن تمسك به من أجل تصفية حساب قديم، كما أنها شاءت أن تزيد من جراحه الشديدة عندما كانت ترتطم العظام بجانبيه وهو يزحف هكذا كثعبان جريح يقاوم الموت.

وصل "صالح" أخيراً إلى الباب، وهذه المرة نجح أن يصرخ صرخة مدوية تبعتها صرخات هادرة شقت سكون الليل، كما جمع كل قواه المتبقية من أجل طرقات حادة وكأنه يطرق على باب الحياة، من أجل أن يفتح له مخلوق من سكانها.. ولكنه لم يجد إجابة، ولا مجيباً وكأن الحياة هي الأخرى ماتت من حوله.

ولكني لا أعرف لمَ يريد الخروج فإنها فرصة عظيمة كي ينتقي بعض الجماجم التي باع ضميره وإنسانيته من أجلها.. ها هي الآن قريبة من يديه، ولو أنه سيعاني حيال البحث وسط العظام والأكفان والهياكل العظمية.

حاول أن يعيد تلك الطرقات وذلك الصياح ولكنه لم يستطع، فقد أعلنت قوته عن نفاد رصيدها حيث وضع رأسه ويديه فوق الباب، وانتظر لعل الأموات تأتيه دون رؤوس الآن وتقضي على حياته التي أوشكت على الانتهاء.

وفجأة !!! سمع دقاً حاداً بأعلى المقبرة وضحكات مرعبة لها صدى غريب، يبدو أنها أجساد الجثث التي حرمها من رؤوسها قد علمت بوجوده ها هنا وجاءت لتأخذ بثأرها، لا بل إنها تلك السيدة المجنونة

تصيح الآن: علوان.. علوان، ولكن دون جدوى فلم تستطع هدم السقف من الأعلى ليخرج زوجها "علوان" الذي ظنت أنه استيقظ الآن وصاحب هذا الصراخ وتلك الطرقات..

حاولت تلك المجنونة هدم المقبرة مراراً وتكراراً ولكنها لم تستطع إخراج زوجها الذي يدفن في مقبرة أخرى، ولن يعود للحياة مجددا، كما لن يعود "صالح" الآن لأنه بالفعل مات..

قفزت المجنونة من فوق المقبرة، وهرولت تجاه القرية، والكلاب تهرول خلفها، فقد أرادت أن تخبر الحانوتي أن "علوان" استيقظ الآن، أما الكلاب وكأنها أرادت أن تشهد على صحة ذلك فقد سمعت صراخه وطرقاته هي الأخرى.

في الطريق كانت تقف وتضحك ضحكات مبتورة، وتشير هناك على الجانب الآخر من الترعة والكلاب تنبح وتزيد من نباحها، ثم تهرول مرة أخرى

وتصيح: علوان حي، ولم تقف حتى وصلت بجوار أحد السواقي، وتسمرت مكانها وهي تضحك ضحكات متواصلة، وكأن هناك من يمد رأسه من بئر الساقية ويصيح لها بالنكات..

وصلت المجنونة أمام باب بيت الحانوتي وطرقت بأقدامها ويديها بشدة بينما كانت الكلاب تنتظرها بعيداً، حينها استيقظت "أم الخير" وارتسم على وجهها تجاعيد الرهبة، وعندما أيقظت الحانوتي أيضاً، جلست أمامه كتمثال يشير بيده تجاه الباب.

ابتسم الحانوتي بوجهها ابتسامة مهدئة للأعصاب، أي لا تقلقي هكذا، فلم يره أحد وهو يزهق روح "صالح"، ولا يظن أن شبح "صالح" جاء بنفسه لأخذ ثأره حيث أشار الحانوتي لزوجته بفتح الباب، اتجهت "أم الخير" نحو الباب ببطء كأنها تسير في الوحل، وقد كانت البرودة تسري بجلد رأسها حتى شعرت أن شعرها يقف الآن كشعر مقشة جديدة حتى أنها لم تلحظ تقدم "عصام" خلفها وهو يفرك عينيه الناعسة، وعندما فتحت "أم الخير" صاحت المجنونة

بوجهها: علوان حي.. علوان حي.

حينها علا زفير "أم الخير" وكأنه صوت أنفاس منفاخ الحداد، ولم تشعر بنفسها حتى دفعتها دفعة قوية، فعادت المجنونة مرة أخرى إلى الباب وقبل أن تلطمها "أم الخير" على وجنتها، أمسك "عصام" بيدها

وقال: إنها لا تدرك أي شيء يا أمي.. شفاها الله ورحمنا جميعاً من المرض، ثم ربت "عصام" على كتف المجنونة، فغادرت المكان وهي تبكي بألم شديد.

علقت الجارة أم محمد: لا حول ولا قوة إلا بالله، لم أر هذه المجنونة منذ أكثر من شهر، فمن جاء بها إلى هنا الآن؟...

لم تجب "أم الخير" وأغلقت الباب، ودلف "عصام" إلى غرفته، بينما كان الحانوتي يدور بغرفته كالدبور، فقد استمع لما قالته المجنونة التي قلما يشاهدها بطرقات القرية، فهي

تسكن ليلاً ونهاراً هناك عند المقابر، وتأكل من صدقات الأهالي على أمواتهم.. فما سر وجودها الآن، وسر هذا الادعاء؟! !!!!!!!!!

لذا أبدل الحانوتي ملابسه فوراً.

قالت أم الخير: إلى أين تذهب في هذه الساعة؟

. إلى المقابر.

. لمَ؟

لم يجب الحانوتي، وسار نحو باب البيت دون أن تصدر أقدامه أي صوت، حتى لا يخرج "عصام" من غرفته ويسأله عن سبب خروجه بهذا الوقت المتأخر خاصة أنه عاد مسبقاً من العمل..

والحقيقة تشكك الحانوتي، أن "صالحاً" مازال حياً، ولم يمت إلى الآن، وهذا ما استنتجه من وجود المجنونة ومن حديثها هذا الذي تحدثت به.

خرج الحانوتي من البيت واتجه نحو الحمارة، وأخذ يفك حبلها وفور ما فعل ذلك، أحكمت الحمارة أسنانها على ذراعه وعضته ثم هرولت هاربة دون أن يفلح هو بالقبض عليها.

ويبدو أنها قررت عدم العودة لهذه القرية مجددا، أو أرادت أن تعيش مع أناس آخرين وليس حميراً مثلها، ولو أننا لم نجد يوماً حماراً قام بقتل حمار آخر، أو باع جمجمته من أجل حمل برسيم..

لم يجد الحانوتي أي حيلة سوى أن يذهب للمقابر سيراً على الأقدام فقد اختفت الحمارة عن الأنظار، ولم يعد لها أثر بعد أن ابتلعها الظلام.....

شعر الحانوتي أن الطريق أصبح أطول من ذي قبل حيث كان يجلس للراحة كلما جف ريقه، وشعر بالتعب حتى وصل أخيراً إلى المقابر، واتجه مباشرة صوب مقبرة عائلته، وفتحها سريعاً. وعندما دفع الباب وجده ثقيلاً حتى أنه لم يستطع فتحه عن آخره، لذا زاد شكه بأن "صالحاً" مازال حياً.

تأهب الحانوتي للقضاء على "صالح" إن كان حياً بالفعل، ولكنه لم يمسك "بالمنجل" هذه المرة، فحتى لو كان حياً، فحتماً قد ماتت قوته الآن.

دخل الحانوتي وألقى نظرة خلف الباب؛ ليجد "صالحاً" يفترش الأرض بعينيه وفمه المفتوحين.. أي لم يصبح لديه أي شك بأنه غادر الحياة هذه المرة، وحينما أراد أن يغلق المقبرة ويغادر المكان، وجد نفسه يقرر دفنه هذه الليلة وليست الليلة القادمة كما نوى من قبل..

اتجه نحو مقبرة فارغة من الجثث، وأحضر الفأس والجاروف وبدأ الحفر في قاع المقبرة وعندما أتم ذلك، ألقى "صالحاً" داخلها بثيابه وحذائه أيضاً، وبعد أن ردم تلك الحفرة، دق عليها بأقدامه على طريقة كفار الجاهلية عندما كانوا يدفنون بناتهم أحياء..

أغلق المقبرة قبل أن يتنهد براحة شديدة، وغنى نفس الأغنية الشهيرة "حسنين ومحمدين"، ولكنه أبدل تلك الأغنية بأخرى كان عنوانها "آه يا ظهري" ولا أعرف هل هذه أغنية بالفعل، أم كان يتألم من أثر ذلك الحجر الذي رمته به المجنونة وهي تصيح: قمت بدفن "علوان" مرة أخرى بعدما استيقظ؟

عاد الحانوتي للبيت، وفتح الباب ودخل كاللص حتى مر من أمام غرفة ابنه وبالطبع قص على زوجته كل ما حدث معه، وتلك المعاناة والمجهود حيال هذه الليلة التي حملت في طياتها كل تعب ومشقة، فما كان من زوجته إلا أن ربتت على كتفه، وقد بدا عليها الإشفاق والحنان، عندما

قالت له: نم.. نم يا "عوض" لقد تعبت كثيراً هذه الليلة.

سقوط الأقنعة

جلس "شريف" يتأرجح على كرسيه الهزاز داخل غرفة نومه، وهو ينظر في ساعته كلما مرت دقيقة، لقد تأخرت "هنية" هذا الخميس، ويبدو أنها لن تأتي هذا الأسبوع أيضاً، فهل تابت عن هذا العمل، أو من ترسل إليهم بالجماجم هم من تابوا، ولكن ماذا عن تلك الجماجم المسجونة بكفنها منذ أسبوع؟

رن جرس الباب، ففتح "شريف" على الفور، إنها "هنية" ترتدي جلبابها المتواضع الذي يزحف ذيله على الأرض كما يزحف ذيل حيوان الكونجارو، ثم إنها تحمل كعادتها الحقيبة البلاستيكية فوق رأسها..

سألها شريف: لم لم تأت الأسبوع الماضي؟

لم تجب "هنية" إلا بعد أن أهدته قبلة الصباح بشفتيها الجافة التي تخفي خلفها أسناناً كحبيبات الذرة

وبعدها أجابت: لقد كان زوجي في شدة المرض.. ولم أستطع المجيء.. ولكن حمداً لله لقد أصبح كل شيء على ما يرام.. ومات أخيراً.

ضحك "شريف" وبادلته هي الضحكة، واتجهت نحو غرفة النوم بجسدها النحيف الذي يشبه مجموعة من العظام لذا كان هو خلفها كالكلب، ثم خلعت ملابسها ليظهر قميص لامع وكأنه ملطخ بالسمن البلدي، وتراقصت وتراقص هو معها على أغنية "يا تجبلي شكولاتة يا بلاش يا ولا".. إنه الاحتفال المعتاد عند كل صفقة من الصفقات. وعندما انتهت من رقصتها، وجذبها "شريف" نحو الفراش، تمنعت بدلال، وقالت: لا لقد تأخرت.. هيا أعطني البضاعة.

اتجه "شريف" صوب الدولاب، وأخرج الكفن، فعدت الجماجم إنها ثمان قطع فقط..

اندهشت هنية: ثمان قطع فقط. !.أهذا ما حصلت عليه في أسبوعين؟

رد: لا.. بل هذا إيراد الأسبوع الماضي.. أما هذا الأسبوع فقد تغيب من يأتيني بالبضاعة..

. حسناً.. ولكن أرجو ألا يتكرر ذلك مجدداً...وأن تعاقب من يعمل معك على هذا الإهمال.

سكت "شريف" للحظات، وبعدها

سألها: ألم يحن الأوان، لأعرف من هؤلاء الذين تعملين معهم؟

ردت وهي تعد له النقود الخاصة بأجرته: وهل سألتك عمن يعملون معك؟

رد: لا.. ولكن من الصعب مرور كل هذه السنوات دون أن أعرف عنك شيئاً حتى أنني لا أعرف أين تقطنين.

قالت: لقد سألتني عن ذلك مرات عديدة ولم أجب، فأرجو ألا تعيد ذلك مجدداً.. ألم يعجبك جسدي؟

. أجل يعجبني.

. ولكنه لن يعجبك، حينما تراني بإحدى الصحف مقتولة وملقاة في إحدى الخرابات، أو بصندوق قمامة.. أفهمت؟

رد شريف بصوت خافت: أجل فهمت.

ارتدت "هنية" ملابسها، ووضعت الكفن وما به من جماجم في حقيبتها بعد أن لفت ذلك الكفن بثلاث جلابيب من اللون الأسود بعدها غادرت وكر "شريف"، متجهة إلى موقف السيارات الخاص بالمغادرة إلى جميع المدن ومن بينهم مدينة القاهرة..

وصلت "هنية" أمام الموقف واستقلت السيارة المتجه للقاهرة، وبعد ذلك استقلت التاكسي، واتجهت نحو إحدى المدن الجديدة، ثم غادرته أمام بناية من ست طوابق، وعندما صعدت البناية، توقفت عند الطابق الثاني حيث مكوث من سيستلم تلك البضاعة..

فتحت الباب بمفتاحها الخاص، لتجد العمدة "بركات" ينتظرها بالصالة، وقبل أن تنطق بكلمة

بادرها قائلا: أين بضاعة الأسبوع الماضي يا "هنية".. ألم أقل لك اتركيها بالدولاب حتى أنتهي من افتتاح عيادة ابن "عوض" الحانوتي؟

ردت: أنا لم آت الأسبوع الماضي يا حضرة العمدة.. فقد مات زوجي

سكت العمدة للحظات

وعاد: البقاء لله يا "هنية".. لقد كان رجلاً مزعجاً.. لكن هل أتيت ببضاعة هذا الأسبوع، وبضاعة الأسبوع الماضي؟

. لا.. لقد تغيب من يحضر البضاعة "لشريف" ليلة أمس.

نفخ العمدة كالذي يطفئ شعلة نار، ثم قال

بضيق: لعنة الله عليك يا دكتور "صالح".

تساءلت هنية: من هذا؟

رد: هذا الذي يأتي بالبضاعة "لشريف" يا زوجة المرحوم.

تساءلت: وكيف علمت ذلك؟

. لقد رأيته و"عوض" يوم افتتاح العيادة، وقد كانا يتحدثان إلى بعضهما، وكأنهما لصان، ويلتفتان حول بعضهما كثيراً.. وما علاقة الحانوتي بالدكتور سوى لإتمام هذا الأمر؟

ابتسمت "هنية" وبدأت بإخراج الجماجم، ووضعها تحت قدميه فوق السجادة.

وهي تقول: أنت داهية يا عمدة.. عرفت الدكتور "صالح" هذا، ومن قبله عوض بمنتهى الذكاء.

. لا.. اكتشاف "عوض" لم يتطلب أي ذكاء.. فقد جاء بالصدفة حينما لاحظت منذ أشهر أنه يذهب للمقابر دائماً ليلة الأربعاء أي قبل استلامي للبضاعة بساعات.

. وبالطبع عندما علمت ذلك أهديته الزريبة من أجل عيادة ابنه كما أخبرتني من قبل.

. أجل فأنا أقدر المخلصين يا "هنية".. أما الخونة فسأقضي عليهم.. قالها العمدة وقد تغيرت ملامح وجهه إلى الغضب بعض الشيء.

انتهت "هنية" من إخراج البضاعة التي لم يعجب العمدة بعددها هذه المرة، ولكنه أعطاها رزمتين من النقود، فقد كان كل فرد من أفراد هذه العصابة يدفع للآخر من جيبه على أن يتسلم بعد ذلك أضعاف ما قام بدفعه، أي أن الحانوتي هو أقل من كان يتقاضى أجرة على عكس العمدة الذي كانت أجرته تعادل أجرة الحانوتي عشرات المرات....

غادرت "هنية" الشقة، وبحوزتها هذا المبلغ الذي ربما لم تحصل عليه طوال سنوات عديدة قضتها كعاملة بمزرعة والد العمدة "بركات "لذا انقطعت عن العمل وعملت كبائعة في قريتها بدلاً من قطع تلك المسافة يومياً من أجل ثمنٍ بخس لم يزداد حتى بعد أن تسلم العمدة "بركات" إرث أبيه.. ولكنه ظهر

بحياتها فجأة وعرض عليها هذا العمل بعد أن حدد إلى أين ستذهب البضاعة، ومن أين ستأتي.

وبالطبع لم يجد العمدة سوى "شريف" الذي اكتشف أنه جشعٌ في يوم كان والده بحاجة إلى كيس من الدم فصيلته نادرة، ليجد هذا "الشريف" يهمس في أذنه

قائلاً: ألف جنيه.. سأحصل عليه مقابل ألف جنيه.. هل ستدفع بمكتبي؟

وعندما لاحظ أنه ينظر إلى مفاتن الممرضات والمرضى من النساء أرسل له "هنية" على الفور..

استقل العمدة سيارته وسار نحو إحدى المناطق الصناعية حيث وصل أخيراً أمام مصنع للرخام يبدو أنه مهجور.

طرق العمدة على باب من الصاج الضخم، فخرج له رجل، يبدو على وجهه ونظرات عينيه علامات الإجرام

سأل العمدة: الباشا موجود؟

لم يجب الرجل، ولكنه أشار للعمدة أن يتبعه كالعادة إلى المكتب.

طرق العمدة على الباب

فسمع: ادخل

دخل العمدة: أهلاً.. أهلاً " شعبان" باشا "الغرابلي"

. أهلاً يا عمدة.. قالها "شعبان" وهو في حالة ضيق، جعل العمدة

يسأله: ما بك يا "شعبان" باشا؟

ابتسم "شعبان" ابتسامة ساخرة معترضة على هذا السؤال الساذج

وسأل: هل دعوتني لحفل افتتاح عيادة ابن الحانوتي من أجل الدعاية الانتخابية أم من أجل إهانتي أمام الفلاحين؟

دافع العمدة عن نفسه: لم أقصد أي إهانات يا "شعبان" باشا ولكنني أردت أن أبعد الشكوك عني وعنك.

صاح شعبان: أي شكوك أيها الغبي؟..وهل هناك من يشك بنا أيها الأبله؟

أحنى العمدة رأسه، وزاد طول قفاه لسنتيمترات

وقال: عذراً يا باشا لن يتكرر هذا مجدداً.

أخذ "شعبان" يقلب في هذه البضاعة القليلة، وهو يمد شفتيه للأمام في وقت اتسعت فتحتي أنفه وكأنه يشم رائحة نتنة.

ثم قال مندهشاً: أهذا ما جنيته في أسبوعين؟

رد العمدة: لا ولكن كان هناك ظرف خاص بأحد أفراد العصابة وتعطل العمل لأسبوع.

فتح "شعبان" ذراعيه اعتراضاً على هذا التقصير والهراء، بعدها نادى على أحد العمال، وسلمه هذه البضاعة، وما هي إلا دقائق حتى علت أصوات الماكينات بأرجاء المكان، فلن يشك

أحد أنهم يقطعون الجماجم ويطحنونها. فهو على أي حال مصنعاً للرخام ومن الطبيعي أن تصدر منه هذه الأصوات.

عد "شعبان" العديد من رزم النقود. وسلمها للعمدة الذي بدوره قام بعد النقود هو الآخر. وقبل أن يضعها في نفس الحقيبة التي أخرج منها الجماجم، مد يده "لشعبان" برزمة من النقود.

وقال: هذه النقود زائدة يا "شعبان" باشا.

رد شعبان بسؤال: ألم تخبرني أنك اكتشفت أن حانوتي قريتك هو من يخرج هذه الجماجم من المقابر؟

. أجل.

. وهل من ماتوا من عائلتك يسكنون هذه المقابر؟

. أجل.

. إذاً هذا حقك من الآن فصاعداً. لعلك أتيتني بجمجمة أبيك أو أمك دون أن تعلم عن ذلك شيئاً.

استاء العمدة كثيراً عما بدر من "شعبان". وغادر المكان على الفور متجهاً للمدينة ومنها إلى قريته في وقت قد وصلت فيه "هنية " للمدينة. وبينما هي تعبر الطريق متجهة إلى موقف قريتها إذ بتاكسي في منتهى السرعة يصدمها. وتسقط أرضاً ويغيب عقلها عن الوجود.

وبالطبع التف الناس حولها وكأنهم يقفون أمام كاميرا التلفاز وكل منهم يريد أن يظهر بالصورة. بينما هرول الآخرون

تجاه سائق التاكسي فهذا يضربه والآخر يكسر له زجاج السيارة وهو يصيح

بالكذب: أنا لم أخطئ، بل تلك السيدة هي من قطعت الطريق فجأة وظهرت أمامي كالعفريت.

لم تمر سوى دقائق قليلة حتى جاءت سيارة الإسعاف وبذيلها سيارة الشرطة حيث غادر رئيس المباحث السيارة، وقام بتفتيشها برفق، ربما عثر لها على أية هوية ولكنه لم يعثر على أي شيء سوى على رزمتين من النقود، ثم أخذ الطبيب يتفحص جسدها في وقت

سأل رئيس المباحث الحضور: أمنكم من شاهد هذه السيدة من قبل؟

عم السكوت للحظات قبل أن تمعن إحدى السيدات النظر في تلك التي تفترش الطريق وكأنها تحاول أن تقرأ بعض السطور المتشابكة في بعضها البعض

ثم قالت: آه أنا أشاهدها كثيراً تتجه إلى موقف سيارات المدن وقد اعتادت أن تحمل على رأسها تلك الحقيبة البلاستيكية الملقاة بجوارها على الأرض، ولكني لا أعرف اسمها، وأين تقطن فهناك عشرون قرية تابعة لهذه المدينة يا حضرة الضابط.

قطع الطبيب تحريات رئيس المباحث حيث

قال: إنها مازالت على قيد الحياة يا حضرة الضابط، وبحاجة لنقلها فوراً إلى المستشفى.

قرر رئيس المباحث القبض على سائق التاكسي ووضعه بسيارة الشرطة، ليتجه مرة أخرى لقسم الشرطة، بعد أن قرر الذهاب بنفسه بعد ذلك للمشفى للكشف عن هوية هذه الغامضة، ومن المؤكد أنه على يقين أن هذه السيدة تقطن إحدى القرى المجاورة للمدينة، وهذا ما يبدو من ملبسها الريفي الذي ترتديه..

لم تمر أكثر من ساعة، حتى اتجه رئيس المباحث للمشفى

وسأل موظف الاستقبال: أين تلك السيدة التي جاءت منذ ساعة بحادث سيارة؟

الموظف: إنها بغرفة عمليات الطابق الثاني سيدي.. هل أنت من أقاربها؟

. لا.. أنا "ياسر فهمي" رئيس المباحث.

فز جسد الموظف، واحمر وجهه بعض الشيء، وهذا ليس غريباً فبعضنا يشعر أنه مجرم إن وجد أمامه أحد رجال الشرطة.

صعد "ياسر" الطابق الثاني للمشفى، وبالطريق سمع وشاهد أموراً طبيعية تحدث كل يوم بالمستشفيات الحكومية، إنه صراخ حاد ينبعث من جميع غرف المرضى في وقت تختلط ضحكات الممرضات مع بعضهن البعض وكأن هؤلاء المرضى يطلقون النكات وليست الصرخات دون أن يذهب إليهم أحد من هؤلاء الذين جلسن من أجل تقشير الثوم والبصل وتقطيع الخضار.

أمام غرفة العمليات كان هناك زحام للأطباء وأصوات متداخلة مع بعضها البعض، وقد كان من بينهم صوت الدكتور "شريف عزمي"

يصيح: قلت لكم أنا المسئول عن دخولها لغرفة العمليات هيا وإلا أصبحتم المسئولين أمامي، إن فقدت هذه السيدة حياتها.

دخل الأطباء غرفة العمليات، بينما تقدم "ياسر"، ومد يده وسلم على "شريف" وهو يقول: "ياسر فهمي" رئيس المباحث، المتابع لحالة تلك السيدة من أجل التعرف على هويتها، أو أي فرد من أفراد أهلها.

هكذا تحدث "ياسر" سريعاً عن سبب حضوره. وكأنه أراد ألا يعطي "شريف" فرصة لكي تتسارع دقات قلبه ويشعر أن هناك مطرقة سقطت فوق رأسه

لذا تحدث بهدوء: وأنا الدكتور "شريف عزمي" مدير المشفى ورئيس كلية الطب بهذه المدينة.

. أهلا بك.. هلّا حدثتني عن حالة تلك السيدة؟

. إنها تعاني كسرا بالجمجمة، وهذا ما أظهرته الأشعة.. وها هي الآن دخلت غرفة العمليات ربما أفاقت بعد ذلك من غيبوبتها.

. هل هي قريبة لك، أو سبق لك التعرف عليها؟

قاوم "شريف" القلق قبل أن يبدو على وجهه

وقال: لمَ ظننت ذلك؟

. لأنني شاهدت قلقك عليها في الوقت الذي رأيت فيه بعضاً من المرضى يصرخون من الوجع وكأن أسواط العذاب تتوالى فوق أجسادهم دون حراك من أي أحد علاوة على من يرقدون فوق بلاط الغرف.. أليسوا أيضاً آدميين مثلها؟

ابتسم "شريف ساخراً.

ثم قال: آسف يا حضرة الضابط. غداً سأحضر لهم مجموعات من الأسرة من بيتنا. بعدها سلم على "ياسر" واتجه صوب مكتبه. وغادر رئيس المباحث أيضاً المشفى. وقد قرر أن يأتي دوماً ليتابع حالتها. ويرسل نشرة بأوصافها إلى عمد جميع القرى التابعة لهذه المدينة. كي يعلم أهلها عن مكانها ليصطحبوها إن خرجت. ويدفنوها إن فارقت الحياة..

لقاء آخر

دخلت "هدى" عيادة الدكتور "عصام" وتجاعيد القلق مرسومة على جبهتها البيضاء حتى أنها لم تستطع الانتظار إلى أن ينتهي "عصام" من الحالة التي يكشف عليها، ودخلت غرفة الكشف دون استئذان

وقالت وهي فاقدة للأمل: لقد تغيب أبي منذ الأمس يا "عصام" ولم يعد للبيت حتى الآن.

جذب "عصام" يد الرجل الذي كان يكشف عليه

قائلاً: عليك بتناول الحلبة يا عم "صلاح".

. ألن تكتب لي أي علاج؟.. فبطني ستنفجر من شدة الألم.

رد عصام بنفاد صبر: صدقني تناول الحلبة أفضل بكثير من الدواء الذي سأكتبه لك.

خرج "صلاح" واتجه "عصام تجاهها، وأمسك يديها بحب وعطف ثم

قال: اطمئني يا "هدى"، هل بحثت عنه في الجامعة؟

ردت هدى وهي تدب قدمها على الأرض

كالأطفال: أجل ولكني لم أجده.

هل بحثت عنه أيضاً بالمشفى الذي يعمل بها؟

. لا.. ولكنه إن كان بالمشفى، لاتصل بي وأخبرني أنه سيتأخر، أو سيبيت هناك.

. لا تقلقي يا "هدى"، وتعالي معي سنبحث عنه بالمشفى، وإن لم نجده، سنبحث عنه بجميع المستشفيات الخاصة.

خرج "عصام" واعتذر لجميع المرضى، واصطحب "هدى" نحو موقف السيارات المتجه للمدينة، وفي الطريق كانت الصدفة حينما قابله العمدة، وعندما شاهده يسير بجوار "هدى" بسرعة

توقف بسيارته وسأل: خيراً يا "عصام" هل حدث شيء يا ولدي؟

رد عصام بعجالة: لقد تغيب أستاذي الدكتور "صالح" عن بيته منذ ليلة أمس وأنا الآن بطريقي لأبحث عنه بالمستشفيات، ثم ترك "عصام" العمدة

وهو يقول في نفسه: مستشفيات؟..أي مستشفيات.. بل اسأل عنه أباك، فهو الوحيد الذي يعلم أهو ميت، أو مازال على قيد الحياة.

وصل الحبيبان إلى موقف السيارات، ولكن ليس هناك سيارات بالموقف سوى أتوبيس كبير يتسع لستين راكب إضافة إلى من يقفون بالممر بين المقاعد.

لم يجد "عصام" حيلة سوى المغادرة بواسطة هذا الأتوبيس فاستقله الاثنان، ووقفا في الممر أمام سيدة تحمل على رأسها إناء نحاسي داخله ذكراً من البط.. كان الإناء يرتطم برأس "عصام"

وكأنه أراد أن يقول له: لقد قتل أبوك من تبحث عنه أيها الطبيب الغبي..

بينما كان ذكر البط ينقر في شعر "هدى" في وقت كان يحسده بعض الرجال، فهو الوحيد الذي استطاع أن يتحرش بها في الوقت الذي عجزت الأيادي أن تمتد ناحيتها..

وحمداً لله فقد قام أحد الشباب عن مقعده، وابتسم في وجه "هدى"

وقال: تفضلي يا آنسة إليك مكاني.

ويا له من شاب في منتهى الذوق فقد ضحى بمقعده، ووقف بجوار تلك السيدة العجوز، والسيدة الحامل هذه الذي كان يراهما ولم يفكر في أن يترك لهما المقعد. فيبدو أن الجمال كالمال بالفعل.. فكثيراً ما يظهر أمامهما نفاقنا.

وصل الأتوبيس، وأسرع "عصام" وحبيبته صوب المشفى وعندما وصلا اتجهت "هدى" مباشرة تجاه مكتب مدير المشفى الدكتور "شريف" الذي يتواجد يومياً ما بين المشفى والجامعة حيث سألته مضطربة: ألم يحضر أبي هذا اليوم يا دكتور

"شريف"؟

رد شريف قلقاً: لا لم يحضر.. إن ميعاده من بعد الظهر يا ابنتي بعد أن ينتهي من محاضرات الجامعة.

. ولكنه لم يحضر إلى الجامعة هذا اليوم.. هل كان موجوداً هنا ليلة أمس؟

. لم أكن موجوداً يا ابنتي.. ولكن جميع إمضاءات الأطباء متواجدة في كشف الحضور..

. ألم يسهر معك.. كعادته في كل ليلة من ليالي الأربعاء؟

. لا أبداً.

شدت "هدى" شعرها "بقوة، بعدها

صاحت: إذاً أين ذهب؟ فإنه لم ينم في البيت الليلة الماضية.

جلس " شريف" على كرسيه وكأن أقدامه قد خلت من العظام، بعد أن راوده الذعر الشديد، حتى أنه لم يشعر بمغادرة "عصام" و"هدى"، وظل يقضي وقته في تفكير ثقيل، وارتبك كل شيء في داخله، فقد تغيب "صالح" حتماً منذ أن ذهب لتسلم البضاعة.. فماذا حدث؟ فوجود "هنية" بهذه الحالة، وعلمه عن اختفاء "صالح"، ورؤيته اليوم لرئيس المباحث، لهي أمور لا تبشر بأي خير على الإطلاق، بل أنها أنبتت الرعب في نفسه وجعلت البرودة تزداد بالمكان حتى شعر أنه يجلس في غرفة من غرف الأسكيمو..

كان "عصام" و"هدى" يسيران بالشوارع بنفس السرعة، ومن يشاهدهما على هذه الحالة يظن أنهما بالطبع متجهان إلى

نقطة محددة، ولكنهما لا يعلمان إلى أين هما يتجهان حتى تساءل

عصام: إلى أين يا " هدى"؟ لقد بحثنا في جميع المستشفيات ولا أثر له.

وقفت هدى وردت بخيبة أمل: لا أعرف يا "عصام" ولكننا لابد أن نتجه نحو أي مكان.. حتى لا أفقد الأمل في أن أشاهده مجدداً

ربت "عصام" على كتفها، وأمسك يدها بحنان وعطف،

وقال: أرى أنه قد حان الوقت، لنبلغ الشرطة عن غيابه يا "هدى "

لم تجب هدى، ولكنها سارت بجانبه، ويدها مستسلمة لعناق يديه التي لم تشعر بغيرها منذ أن تغيب أبوها عن البيت

دخل "عصام" إلى قسم الشرطة، وبيده "هدى" التي ازداد الإرهاق على وجهها حتى أصبح مثل قناع يخبئ خلفه بياض وجمال وجهها الحقيقي.

دخل "عصام" و"هدى" مكتب رئيس المباحث الذي عندما شاهدهما

قال: خيراً

رد عصام: لقد جئنا من أجل تقديم بلاغ اختفاء يا حضرة الضابط.

. ما اسم المختفي.. وكم عمره.. ومنذ متى تم اختفاؤه.. وأين يسكن؟

ردت هدى: "صالح خيري".. خمسون عاماً، تغيب منذ الليلة الماضية.. يسكن المدينة وتحديداً أمام ميدان شرف.

. هل أنت ابنته؟

. أجل.. أنا هدى ابنته.

. إذا من يكون هذا؟

. إنه الدكتور "عصام" تلميذ والدي الدكتور "صالح".

. أيعمل طبيباً بشرياً، أم هو دكتور في علم آخر؟

رد عصام: لا بل هو طبيب بشري، ومدرس جامعي، ويعمل بالمشفى الحكومية الموجودة هنا بالمدينة.

هز رئيس المباحث رأسه بقرف، فهي ذاتها المشفى التي زارها منذ قليل والتي لا تصلح إلا أن تكون مشفى للحيوانات.

وقف رئيس المباحث، وأشعل سيجارته، وأخذ يروح ويجيء بالغرفة، وأخذ يفكر على صوت دقات حذائه على بلاط الغرفة

ثم عاد وقال: أخبريني عن آخر مرة شاهدتيه فيها يا "هدى"؟

. شاهدته في مكتبه بالجامعة أمس في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر حينما كان يلملم أغراضه للذهاب للمشفى.

. إذا هو متغيب قبل حلول الليل

. لا.. لقد ذهب للعمل في المشفى، وقد أقر الدكتور "شريف" بتواجده حتى نهاية آخر ساعة من ساعات العمل.

أعاد رئيس المباحث نفس السؤال على "عصام" الذي لم يشأ أن يخبر"ياسر" أنه ذهب لبيته من أجل خطبة هدى..

ولكنه قال: شاهدته منذ أسبوع تقريباً يوم افتتاح عيادتي، ولكنه لم يجلس معي فقد كان منهمكاً في الحديث مع أبي طوال هذا الحفل

. وهل أبوك طبيب هو الآخر؟

. لا بل إنه حانوتي القرية.

. وهل كان الدكتور يعرفه قبل هذا اليوم؟

. لا أظن.

. ولكن كيف يكون منهمك مع أبيك في الحديث، دون سابق معرفة علاوة على أن هذا حانوتي، وذاك طبيب

أحنى "عصام" رأسه

وقال بخجل: لا أعرف.

سكت "ياسر" للحظات، وربما قال لنفسه، ما هذا اليوم الذي تغيرت فيه أحوال الدنيا، فمدير المشفى أظهر قلقه على سيدة من المفترض أنه لا يعرف عنها شيئاً، إضافة إلى دكتور ينهمك بالحديث مع حانوتي.. غريب!!!

عاد الضابط لهدى مرة أخرى

وقال: هل اعتاد السهر خارج البيت، أو زيارة أماكن تعرفينها؟

. أجل إنه يتأخر في كل ليلة من ليالي الأربعاء حيال السهر مع الدكتور "شريف عزمي" وهذا بعد أن ينتهي من ساعات عمله الليلي.

. هل تعرفين أماكن أخرى يقوم بالتردد عليها؟

. لا.

. ألم يخبرك عن أي أعداء بحياته؟

. لا.. لم يخبرني.. وأظن أنه لا وجود لعدو واحد في حياته.

وأخيراً أمر رئيس المباحث أحد الضباط بأن يفتح لهما محضرا، وأخبرت "هدى" عن مواصفات أبيها، بعدها أخبرهما رئيس المباحث أنه سيقوم ومعاونوه بالتحري عنه بعد مرور 24 ساعة منذ غيابه، وأنه سيبلغها إن حدث أمراً جديداً.

غادر "عصام" و"هدى"، وفتح رئيس المباحث تحقيقاً خاصاً لذلك الرجل الذي صدم "هنية" بالتاكسي.

وبعد ذلك اتجه مرة أخرى للمشفى، قاصداً مكتب المدير، ولكنه لم يجده وعندما سأل عنه قال له أحد الممرضين أنه في غرفة العناية المركزة.

اتجه "ياسر" صوب الغرفة، فوجد المدير قد خرج منها قبل أن يصل "ياسر" لها

ها كيف حال المريضة يا سيادة المدير، قالها "ياسر" وهو يراقب الاصفرار الذي بدأ يسري بوجهه.

قال شريف وهو يغض بصره عن وجه ياسر: لقد أجرى لها الأطباء عملية جراحية، ولكنها ما زلت تعاني من غيبوبة.

. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ولكنك مشكور في جميع الأحوال فقد قمت بواجبك على ما يرام.

. لكن ألم تعثروا إلى الآن على أي فرد من عائلتها؟

وضع "ياسر" يده على كتف المدير

ورد: لا تقلق بشأن ذلك.. فهي في الغالب تقطن إحدى القرى المجاورة للمدينة لذا أرسلنا إشارة لعمد كل هذه القرى، وفي خلال أيام ستظهر عائلتها من أجل المكوث بجانبها، وربما أجابني أحدهم من أين أتت بكل هذه النقود التي وجدناها بحوزتها

. ولكن أ مطلوب مني الآن أي شيء يا حضرة الضابط؟

. لا شيء سوى أن تساعدني في العثور على "صالح" أم أنك لم تعرف أنه مختف منذ ليلة أمس؟

. أجل أعلم.. لقد أخبرتني ابنته بذلك.

. وأخبرتني أنا أيضاً.. وقالت لي أنه دوماً ما يسهر معك ليلة الأربعاء.. أليس كذلك؟

أخذ "شريف" يهرش بأنفه وجبهته قبل أن يسأله سؤالاً خاف أن تكون إجابته بأجل

حيث سأل: أتتهمني باختطافه يا حضرة الضابط؟

ضحك "ياسر" وقال: لا بالطبع ولكنها مجرد تحريات عنه ربما كنت خيطاً نتبعه من أجل الوصول إليه.

. فهمت إذاً... ولكنه لم يأتني بتلك الليلة يا حضرة الضابط صدقني.

. وأنا على يقين من صدقك يا دكتور، فأنت مديره بالمشفى والجامعة ولا مصلحة لك في استمرار اختفائه..

. هذا صحيح يا حضرة الضابط.

. إذاً إلى لقاء قريب يا دكتور.

عاد رئيس المباحث إلى مكتبه مرة أخرى، وقد كان على وجهه بعض الضيق مثل ذلك الذي يبدو على وجه صياد ليس لديه صبر على الصيد، ولكن يبدو أن السنارة ستغمز الآن..

سمع "ياسر" طرقات هادئة على الباب

فقال: تفضل.

دخل رجل يرتدي جلباباً أزرق وعمامة بيضاء

قال رئيس المباحث: ما الأمر.. هل باع لك أحد العتبة الخضراء؟

رد الرجل: لا.. ولكني جئت أقدم بلاغاً عن سرقة إحدى الشقق التي أتولى حراستها

. ما اسمك أيها الرجل؟.. وأي شقة تتحدث عنها؟

. اسمى "عثمان السيد.. أعمل بواباً في إحدى العمارات.. وعندما عدت من حفل زفاف أحد أقاربي اكتشفت سرقة إحدى الشقق.

. ولمَ لم يأت صاحب الشقة ويقدم البلاغ بنفسه؟

. الشقة كانت مغلقة يا باشا.. فصاحب الشقة لا يمكث فيها إلا على فترات متباعدة

. وما اسم صاحب الشقة؟

. الدكتور "صالح خيري"

نظر "ياسر" للرجل بدهشة

وقال: كيف أيها الرجل.. فابنة الدكتور "صالح" كانت هنا اليوم، وقدمت بلاغاً باختفاء أبيها، هل تتحدث عن شقته الموجودة بميدان شرف؟

. أنا لا أعلم شيئاً عن ابنته هذه، ولا علم لي أيضاً بتلك الشقة، ولكني أقصد شقة أخرى اشتراها منذ أربعة أشهر، وكان يتردد عليها كل فترة.

. أين توجد هذه الشقة؟

. بالبر الشرقي.. أمام الكوبري الجديد وتحديداً في عمارة 11 الدور السادس.

وقف "ياسر"، واتجه نحو شرفة المكتب وفتحها، وكأنه أراد أن يستقبل الحقائق التي ستتوالى عليه من خلال الشرفة حيث أشعل سيجارته ونفث دخانها وهو ينظر لسراب، فقد أيقن أنها

شقة مشبوهة وإلا اصطحب الدكتور ابنته إليها وشاهدها هذا البواب من قبل.

عاد "ياسر" وحدق بعينيه في عين ذلك البواب

وسأله: هل كان يتردد على هذه الشقة بمفرده؟

لم يجب البواب، إلا بعد أن ربت "ياسر" على كتفه وقال له بصوت

خافت: تكلم وأعدك أن تخرج من هنا دون أي إيذاء.

وعندئذ تحدث البواب على أن الدكتور، كان يأتي وحده، ثم تتبعه بعض النساء ولكن النساء كانت تتغير كما تتغير ألوان البذل التي يرتديها، ولكن هناك رجل آخر كان دائم التردد على الشقة حتى يوم الثلاثاء الماضي وجده يصعد السلم..

وعندما سأله رئيس المباحث عن اسمه، أجابه بأنه قد سمع الدكتور يوماً يقول له افتح الباب يا "عوض" في وقت أراد البواب أن ينقل شكوى أحد الجيران حيال صوتهم العالي..

سأل رئيس المباحث: هل أخبرتني عن مواصفات "عوض" وما اعتاد أن يرتديه؟

. إنه رجل أقل ما يقال عنه أنه مخيف له لحية مجعدة كثيفة.. طويل القامة.. لم أره إلا مرتدياً جلباباً وبيده عصا لا أعرف إن كانت من خشب أم من حديد.

لم يتردد رئيس المباحث للحظة أن هذا هو "عوض" الحانوتي والد الدكتور "عصام" حيث زاد شكه في أن هناك

علاقة بين الحانوتي والدكتور أكبر من لقائهم السري بتلك النساء، ربما كانت من أجل العظام والجماجم المتواجدة بالمقابر والتي تدخل في صناعة المخدرات.

أما عن سهرات "صالح" و"شريف". فإن دلت فهي تدل على أن دكتور شريف شريك معهما، إضافة إلى تلك السيدة التي أظهر "شريف" القلق عليها، والتي وجد بحوزتها المزيد من النقود التي لا تتناسب أبداً مع هيئتها، وما كانت ترتديه من ملابس بالية.

فهل قتل أحد هؤلاء "صالح" لاختلافه معه بأي أمر من هذه الأمور غير الشرعية؟

فرئيس المباحث لا يعلم، ولكنه أصبح يشك في أي شيء ولكنه لا يعلم لمَ لا يشك "بعصام" أيضاً، فربما يكون هو حلقة الوصل الأولى بين أبيه الحانوتي وهؤلاء الدكاترة، في وقت لم تدرك هدى شيئا عن كل هذه الأمور.

قرر رئيس المباحث الاقتراب من الحانوتي دون أي اتهام له فهو لم ينس أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته..

أشار رئيس المباحث إلى البواب للذهاب إلى أحد غرف الضباط، وأمره أن يفتح محضراً لهذه السرقة، وبعدها أرسل معه ضابط شرطة واثنان من العساكر للمعاينة والتحقيق، قبل أن يطلب منه تغيير قفل الشقة وإحضار المفتاح له بالقسم.

موت السجان

في الليل عاد "عصام" إلى البيت، فوجد أبويه يجلسان بالصالة، وقبل أن يدلف إلى غرفته قال عوض: أين كنت يا "عصام".. فعندما مررت على العيادة وجدتها مغلقة؟

تنهد عصام: لقد كنت مع "هدى" نبحث عن أبيها بمستشفيات المدينة، فقد تغيب منذ ليلة أمس..

. وهل وجدتموه يا ولدي؟.. فكنت على وشك الذهاب إليه من أجل خطبة ابنته.

. لا يا أبي لم نجده.. ولكننا قدمنا بلاغاً بقسم الشرطة.

دلف "عصام" لغرفته، والحزن يبدو على وجهه، وقلبه يبكي من أجل حبيبته "هدى" تاركاً عتاب أمه لأبيه

عندما قالت له: أيعجبك هذا، لقد قتلت "صالحاً" من أجل أغراض كثيرة ومن بينهم الخطبة، فكيف ستتم الخطبة في هذه الظروف أيها الذكي؟

. سوف تتم يا "أم الشر" ربما السنة القادمة أو الشهور القادمة ولكنها حتماً ستتم بعد أن تفقد الأمل في إيجاد أبيها، وتقرر إكمال حياتها.

مرت الساعات ثقيلة على "عصام"، وهو ينتظر أن تسطع شمس الوجود التي مازالت نائمة خلف الظلام، وعندما صاحت الديوك معلنة على أنها لا ترتكب حماقات البشر، علت صرخات

أم الخير بعبارة: لقد مات أبوك يا "عصام"

هرول "عصام" نحو غرفة أبيه في رهبة وفزع، واحتضنه أولا ثم نظر لأمه

وقال: ماذا حدث؟

ردت الأم: لا أعرف.. لقد قال لي أريد أن أشرب، وعندما عدت بكوب من الماء وجدته ملقى على الأرض.

قلب "عصام" في جسد أبيه بذهول، وبعدها صرخ بعد أن تأكد أن أباه مات بالفعل واختلطت صرخاته بصرخات أمه ولطمها لخديها.. ثم توافدت نساء الجيران للمجاملة بالبكاء والعويل وكأنهن في سباق وقد أرادت كل منهن الفوز به ربما ظهرت أمام "أم الخير" بأنها أكثر حزناً وألماً مقارنة بالأخريات.

في الصباح.. تناقلت مكبرات الصوت خبر وفاته. وسط روعة جميع المستمعين. وكأنهم لا يعلمون أن السجان سيأتيه يوماً ويصبح هو أيضا مسجوناً.

ولكن يا ويل سجان ظالم وسط مجموعة من المساجين، بعد أن أصبح نزيلاً معهم بنفس السجون.

بعد أن حضر طبيب الوحدة الصحية، أخرج "عصام" لأبيه تصريحاً بالدفن، وعند اقتراب موعد حمل الجثة إلى المسجد ذهب "أحمد ابن بهانة" إلى "عصام"

ليأخذ منه مفاتيح المقابر بعد أن أخبره أن أباه قد اختاره للعمل معه وبالفعل أخذ "أحمد" المفاتيح، لكي يصبح رسمياً السجان الجديد الذي سيبدأ عمله بحبس السجان القديم..

دخل "عوض" إلى شارع المقابر وهو محمول على الأكتاف هذه المرة، لم يحضر الجنازة سوى القليل من الفلاحين، حتى بدت أنها جنازة مغترب في بلاد غريبة، حتى العمدة لم يحضر هو الآخر ربما خاف أن يحاسب كشريك معه في العديد من الجرائم.

توقف النعش أمام المقبرة، وصرخ "عصام" كالذي أصيب بخنجر واخترق ضلوعه، في وقت حمله "أحمد"، ووضعه في موضع مقابل للقبلة، وأغلق الباب، وبدأ الشيخ بالدعاء له، ولكن الشيخ لا يعلم كيف يخطئ هكذا لأول مرة، فقد قال أكثر من مرة: اللهم اجعل قبره حفرة من حفر النار، ولكن لا بأس فيبدو أن المشيعين لم يلحظوا ذلك وإلا ما ردوا بصوت عال

وقالوا: آمين.. آمين

بعدها غادر الناس، واحداً تلو الآخر، أما "عوض" فكان يستمع إلى وقع أقدام المشيعين، مثله كمثل أي إنسان ميت

ولكنه لم يقو على فتح عينيه أو تحريك يديه أو قدميه إلا في وقت متأخر من الليل، ليستيقظ "عوض" أخيراً داخل مقبرته، ليجد نفسه وسط الأموات

لذا صاح بهلع: عصااااااااااااام

هكذا كان "عوض" الضحية الوحيدة لابنه الذي لم يستطع أن يفرق بين شخص ميت وآخر مصاب فقط بغيبوبة طويلة تدعى غيبوبة السكر، ليستفيق منها ويجد نفسه في مقبرة واحدة مع "صالح" الذي دفنه في قاعها من قبل..

وقف "عوض" على قدميه، ونزع هذا الكفن عن جسده، واتجه نحو باب المقبرة، وبينما هو كذلك إذ غرست قدمه بالرمال بنفس المكان الذي دفن فيه "صالح" وكأنه يشد قدمه

ويقول له: أين تذهب يا عزيزي ابق معي لكي ترى نفس المصير..

لم يستطع "عوض" أن ينجو من الرعب الذي أصابه، فحتى إن كان "حانوتياً" وتواجد كثيراً داخل جميع المقابر، إلا أن الأمر قد اختلف الآن، فلأول مرة تغلق عليه المقبرة من الخارج.

نزع "عوض" قدمه، واتجه نحو الباب، وأخذ يدق بيده دقات قوية سمعها اثنان من الفلاحين

ليقول أحدهما للآخر: ألم تسمع صوت الطرقات الصادرة من المقابر.. ألم أقل لك لا لري البرسيم ليلاً

لم ينطق الآخر، ولكنه هرول تجاه القرية ومن خلفه صاحبه حيث خشيت الطبيعة من أن يستمع إلى طرقاته بعد ذلك فلاح شجاع ويذهب ويخبر ابنه، أو يحاول إخراجه من المقبرة.

لذا ارتفع أزيز الرعد، وهطلت الثلوج من السماء واشتد صوت العواصف، ونبحت الكلاب وعوت الذئاب، اتحدت جميع الأصوات حتى لا يسمع أي مخلوق صوت استغاثة الحانوتي الذي كان يستحم بالعرق المتصبب من كامل جسده، وعلى الرغم من ذلك جسده يهتز سريعاً وكأنه يقف فوق أرضية مكهربة..

اتجه الحانوتي في إعياء وتحسس في الظلام إحدى الجثث، ثم خلع قدمها واتجه نحو الجدار الخلفي للمقبرة، وأخذ يدق بقوة أسفل الجدار.. وقد بدأ الجدار الطيني في التصدع وسقطت منه بعض قوالب الطوب.

عندئذ أحنى الحانوتي جسده، ليمد رأسه إلى الخارج، وينظر إلى الحياة ويستنشق هواءها قبل أن يعاود الهدم ويخرج بكامل جسده، ويبدو أن الحياة قالت له إنك غبت عني لساعات، ولا يصح أن تعود لي مجدداً.

ففجأة !!! رطمته السيدة المجنونة على رأسه بحجر ضخم ودفعت رأسه بيدها ليسقط داخل المقبرة، والحجر أيضاً دون أن تتساقط من رأسه سوى القليل من قطرات الدماء في حين كانت تصيح وهو يفترش أرضية المقبرة: أعرفك جيداً.. إنك من قمت بدفن علوان زوجي بعد أن استيقظ.

في نفس الليلة جاء "أحمد ابن بهانة" يعبث هو الآخر بمفاتيح المقابر، وظل ينظر متحيراً لبعض الأبواب قبل أن

يحدث نفسه قائلاً: إنه "عوض" ولا أحد غيره

فتح "أحمد" المقبرة، وبعدها قد احتارت الحيرة ذاتها.. فما هذا الشق في أسفل المقبرة؟

ومن أين أتت قطرات الدماء هذه تحت الجثة التي انتقلت من مكانها ورقدت في غير موضع القبلة؟

ومن ذا الذي أتى بهذا الحجر؟ وهذه القدم كيف انفصلت عن جثتها؟

تقدم "أحمد" من جثة "عوض" وقلب فيها، فوجد جرحاً عميقاً في رأسه، أدرك "أحمد" أن "عوض" لم يمت إلا الآن، وعندما سمع ضحكات مجلجلة للمجنونة وهي تنظر من شق المقبرة، تفهم الحقيقة، فيبدو أن "عوض" دفن وهو على قيد الحياة بالفعل، وعندما فاق من غيبوبته نجح في اختراق ذلك الجدار بقدم أحد الأموات وحينما مد رأسه من فتحة الجدار ضربته هذه المجنونة بذلك الحجر، وسقط ميتاً الآن.

على الفور هم "أحمد" بسد ذلك الشق بقوالب الطوب والحصى التي سقطت منه على أن يأتي بالصباح ليعيد سده ببعض القوالب الصحيحة والطين، ثم لف الكفن حول الجثة مرة أخرى حتى رأسها وقلب الرمال على قطرات الدماء المتناثرة، وقد قرر في نفسه ألا يحدث أحداً عن ذلك، فربما حاسبه

القانون على دفن جثة وهي على قيد الحياة كما يعتقد هو، أو أصبح سخرية لجميع أهل القرية وضرب به المثل في الغباء.

بعد أن أنهى "أحمد" كل هذا، وأغلق باب المقبرة حيث المغادرة، ضرب بيده الضخمة على جبهته العريضة

وقال: أخ.. لقد نسيت ما جئت من أجله، ثم أخرج من جيبه عملاً سفلياً ووضعه في فم "عوض" الحانوتي

وهو يقول: سامحني يا عم "عوض".. ولكني مضطر في وضع هذا السحر في فمك، ربما حل الفراق بين "حسان" وحبيبتي "مستورة " ووافقت على الزواج مني...

غريب!! لقد ترك "أحمد" كل الأموات، ووضع السحر في فم "عوض" وكأنه يعلم أن "عوض" ملأ أفواه الموتى بتلك الأعمال من قبل، وها قد جاء عليه الدور، كما سيأتي على "أحمد" الدور أيضاً إن قرر بالفعل أن يصبح "عوض " الجديد..

خيط آخر

بعد يومين منذ موت عوض

جلس رئيس المباحث على مكتبه، وأخذ يرسم بعض الدوائر على ورقة بيضاء فقد مات "عوض"، ولكن الشك مازال حياً في قلب "ياسر" الذي ترجى المأمور كثيراً في القبض على "شريف" والتحقيق معه بتهمة التجارة في عظام وجثث الأموات. مادام كل شيء واضحاً كالشمس، فلابد أن "صالحاً" قد قتل على يد "عوض" أو "شريف"، كما أن هذه السيدة التي لم يظهر لها أهل إلى الآن شريكة معهم، وهناك أفراد آخرون لن يعرفهم "ياسر" حتى يقبض على هؤلاء ويعترف جميعهم بكل شيء..

ولكن لا فائدة، فقد رفض المأمور ذلك، فتردد "صالح" و"عوض" على تلك الشقة ليس هو الدليل القاطع على قتل "عوض" لـ "صالح" فربما كانت العلاقة بينهما نسائية فقط، وكذلك "شريف" فسهره مع "صالح" لا يعني أنه قد قام بقتله، "فصالح" طبيب في المشفى التي يديرها "شريف"، ودكتور جامعي بنفس الجامعة التي يرأسها "شريف"، وليس غريباً أن يسهرا مع بعضهما كل يوم وليس كل أسبوع فقط، أما عن

اهتمام "شريف" بتلك المريضة، فيعد من الأمور الطبيعية حتى النقود الكثيرة التي بحوزتها، لهو من الأمور المنطقية بهذا الزمان فمن يبدو عليه الفقر هو ذاته الذي تمتلئ جيوبه بالنقود، على عكس من يبدو عليه الغنى، فغالباً ما يسير بطريقه وليس بجيبه جنيها واحداً..

فجأة!!! رن جرس الهاتف وتبسم رئيس المباحث

وقال في نفسه: آه.. لو كان المتصل فرد من أفراد العصابة أراد أن يخبرني عن نفسه..

أجل فهو بالفعل فرد من أفراد العصابة ولكنه لن يخبر "ياسر" عن ذلك، بل أنه أبلغ "شعبان" بموت "عوض" واختفاء "صالح" وتلك الإشارة التي وصلته عن "هنية" ولابد أن يقف العمل هذه الأيام حتى إعادة تكوين عصابة جديدة أول طرف فيها لابد أن يكون "أحمد ابن بهانة" الذي أشيع بين أفراد القرية أنه أصبح الحانوتي الجديد

. آلو.. من؟

. أنا عمدة قرية "الكروان".. هناك حادثة قتل حدثت في إحدى البيوت.. وقد تم القبض على القاتل

. من قتل من؟

. رجل يدعى "أبو محمد " طعن زوجته الجديدة عدة طعنات حتى ماتت

. إذاً أخبرني عن العنوان.

. بيت القاتل لا يبعد كثيرا عن بيتي.. فقط تعال إلى الدوار ستجد خفيراً بانتظارك لتوصيلك إلى مكان الحادث.

سريعاً استدعى رئيس المباحث القوة المعاونة له، واتجه نحو القرية، وعند الدوار أشار له الخفير، واستقل السيارة.

ها هو البيت يا حضرة الضابط.. قالها الخفير، وغادر رئيس المباحث السيارة سريعاً وبيده أخذ يدفع زحام الناس الشديد حتى دخل البيت، كانت القتيلة ملقاة فوق الفراش وبجانبها الزوجة الأولى "أم محمد" تلطم خديها، وبجوارها زوجها يجلس مذهولاً في حين كان العمدة يقبض بيده على كتف المتهم.

قال رئيس المباحث: هل هذا هو القاتل؟

رد العمدة: أجل.. هو يا باشا.

سأله رئيس المباحث: لمَ قتلتها أيها الرجل؟

رد بصوت خافت: لا أعرف.. قتلتها فحسب.. دون أن أدري أنني قمت بقتلها.

هز "ياسر" رأسه ساخراً، ثم اتصل بالنيابة التي أمرت بتحويل الجثة بعد ذلك إلى الطبيب الشرعي للتأكد من سبب الوفاة حيث أمسكت القوة "بأبي محمد" وجروه نحو السيارة في حين كانت صرخات "أم محمد" تملأ المكان

وهي تقول: خذوني بدلاً عنه.. اعتبروني من قتلتها.

وصل رئيس المباحث للقسم، ودخل مكتبه على الفور، ومن خلفه القوة والمتهم "أبو محمد"

سأل رئيس المباحث: ما اسمك.. وكم عمرك؟

رد: "مرزوق عطية " الشهير "أبو محمد".. خمسون عاما.

. لمَ قتلت زوجتك يا "أبو محمد"؟

. صدقني لا أعلم.. بل وجدت قوة خفية تدفعني إلى ذلك.. ولم أدر بنفسي إلا بعد أن طعنتها عدة طعنات..

تنهد رئيس المباحث بحزن وقال: كيف يا "أبو محمد"؟

. هذا ما حدث يا حضرة الضابط

بعد ساعة من التحقيق، اقتحمت "أم محمد" المكتب

وصاحت: زوجي بريء يا حضرة الضابط.. لقد كان تحت تأثير السحر.

نهض رئيس المباحث عن مقعده

وسألها: عن أي سحر تتحدثين؟

ردت: لقد طلبت من زوجة حانوتي القرية عمل سحر على أن يضعه زوجها في فم أحد الأموات، لكي يولد الكره في قلب زوجي تجاه زوجته الجديدة.

. أتقصدين زوجة الحانوتي "عوض" الذي مات؟

. أجل.. وقد أعطيتها مئة جنيه مقابل ذلك.. وقد ذهب زوجها في إحدى ليالي الأربعاء وأتم ذلك العمل.

سأل: أهو ذهب خصيصاً بهذه الليلة من أجلك أنت؟

. لا بل أخبرتني زوجته إنه يذهب في هذه الليلة من كل أسبوع لعمله بالمقابر حيث نقل الجثث والعظام وما شابه ذلك..

قال رئيس المباحث لنفسه: وربما لبيع العظام والجماجم، وقتل "صالح" أيضاً لا أحد يعلم..

بعدها صاح على العسكري: قم بوضع هذا الرجل بحبس الرجال وهذه السيدة بحبس النساء..

ثم اتجه رئيس المباحث إلى مكتب المأمور، وقص عليه ما حدث وما سمعه من زوجة القاتل، فقد اختفى "صالح" في إحدى ليالي الأربعاء الذي يعمل فيها "عوض" بالمقابر، كما أن من طاوعته نفسه أن يضع عملاً سفلياً في فم الأموات، تطاوعه أيضاً في بيع عظامها وجماجمها

قال المأمور: ماذا تريد إذاً؟

. القبض على "شريف" وزوجة الحانوتي، فأنا على يقين من تسترها على جرائم زوجها في بيع جماجم الموتى، وربما أخبرتنا عن بقية أعضاء العصابة، وسر اختفاء "صالح" أيضاً

سكت المأمور قليلاً وقال وهو يمده سبابته محذرا رئيس المباحث

. قم بالقبض على زوجة الحانوتي فقط، أما القبض على "شريف" أو غيره فلن يحدث، حتى حصولك على دليل قوى يحول شكك وشكي هذا إلى يقين.

على الفور ذهب رئيس المباحث ومعاونيه للقبض على "أم الخير" بتهمة السحر والشعوذة بمقابل مادي..

طرق رئيس المباحث الباب، ففتحت "هدى"، فهي تقضي طوال النهار بجوار "عصام" تواسيه على موت أبيه، وهو أيضاً يواسيها على غياب أبيها حيث إنهما يجمعان آلامهما الثقيلة سوياً حتى تخف موازينها، كان "ياسر" على يقين من عشق "هدى" و"عصام" لبعضهما، وربما هذا من أبعد الشك عنهما، فمن يملك قلباً يستطيع أن يحب، لن يقوى على الإيذاء لأي سبب من الأسباب.

سألت هدى: هل جئت بأخبار عن والدي؟

رد رئيس المباحث وهو يدفع الباب: قريباً ستولد أخبار عنه يا آنسة "هدى"

قام "عصام" قلقاً من فوق مقعده بالصالة

وسأل: خيراً يا حضرة الضابط.. ماذا حدث؟

خرجت "أم الخير" مضطربة، حينما سمعت كلمة يا حضرة الضابط، حينها نظر لها رئيس المباحث نظرة حادة..

ورد على عصام: خيراً يا دكتور "عصام".. جئت فقط من أجل القبض على والدتك..

وضعت "هدى" يديها على وجنتيها، واتسعت عيناها، بينما تلجلج لسان "عصام"

وقبل أن يقول لماذا

نطقت أم الخير: أنا جاهزة يا حضرة الضابط هيا.. أنا آتية معك..

خرجت "أم الخير" مع رئيس المباحث وسط زحام الناس بالشارع، هؤلاء الذين تداخلت أصواتهم مع بعضها البعض ما بين عبارات مشفقة وأخرى حاقدة وشامتة.

وصل رئيس المباحث لغرفة مكتبه، ومن خلفه "أم الخير" كان رئيس المباحث ينظر لها نظرات عميقة تخترقها، وتقرأ ما بعقلها، وما يخفيه صدرها.

قال وهو يطرق بأصابعه فوق المكتب: لقد أخبرتني "أم محمد" أنك صنعت سحراً لزوجها، ووضعه زوجك في فم أحد الأموات، ليقتل زوجته على أثره.. أهذا صحيح؟

ابتسمت "أم الخير" ساخرة: أي سحر هذا الذي يقتل يا حضرة الضابط.. ألست متعلماً؟

رد بعد أن قام ولف حولها: أجل متعلم، وأعلم أن السحر يؤثر على أعصاب الإنسان حتى يرتكب جرائم دون أن يدري كيف فعلها.

.ولكن "أم محمد " كاذبة، فلم أقم بفعل هذا الأمر الشنيع.

سكت رئيس المباحث للحظات، أخذ يبحث من خلالها عن أي سلاح فعال يقاوم أسلحة الخبث الذي يبدو على وجه هذه السيدة، وبعدها قرر أن يهددها بسلامة ابنها لذا عاد

وقال: اعترفي يا "أم الخير" فأنا على علم أنك قمت بأبشع من هذا الفعل. وتاجرتي وزوجك وابنك في رفات الموتى

صاحت أم الخير دون أن تشعر: لا.. ليس لابني أي صلة بأي شيء..

استغل رئيس المباحث قلقها على ابنها، ذلك الذي جعل يديها تكاد أن ترتطم بوجه "الضابط " حيال نفيها لأي تهمة تصيب "عصام"

وعاد بدهاء: كيف تطلبين مني أن أصدق أنه لم يكن حلقة الوصل بين أبيه و"صالح"، فإن ظهر"صالح" مقتولاً، فسيصبح ابنك أول المتهمين بقتله.

صاحت أم الخير: ولكن هذا افتراء.

. لا ليس افتراء، فمن الواضح أنه يحب ابنة "صالح"، وأرى أنه تقدم لخطبتها

ومن المؤكد أنه قد رفضه، وهذا سبب كافي لقتله.

تسارعت أنفاس أم الخير وقالت بهدوء يحمل كل

العصبية: قلت لك ابني لم يتاجر بأي رفات، ولم يقتل "صالحاً" صدقني.

سكت الضابط قليلاً، ثم نظر لجلبابها

وعاد: أتعلمين إن قلت لي أن هذا الجلباب ليست جلبابك، فلن أصدقك ما دمت أراه على مقاسك، وإن أخبرتيني أن ابنك بريء فلن أصدقك، مادامت هذه الجرائم على مقاسه..

صرخت أم الخير: ولكن ابني بريء صدقني

. وما دليلك على أنه بريء.. إن كان في يدك إنقاذ ابنك فلا تتأخري واعلمي أن القبض عليه ما هو إلا مسألة وقت..

اعترفت أم الخير: ليس "لعصام" علاقة بأي تجارة لرفات الموتى ولكن أباه من كان يتاجر فيها مع شريكه "صالح".

. عظيم.. هكذا تم نفي هذه التهمة عنه، ولم يتبق سوى تهمة اختفاء "صالح"

ردت أم الخير سريعاً: حتى هذه ليس له علاقة بها، فقد قتل "صالح" على يد أبيه "عوض"

. وأين جثته؟

. قام بدفنها بقاع المقبرة التي دفن هو فيها.

هز رئيس المباحث رأسه سريعاً، وكأنه لم يصدق ما قالته "أم الخير" ولكنه عاد وهو يضع يده فوق رأسه: هذا عظيم.. فالآن قد نجا ابنك، وزوجك قد مات ولا نستطيع محاكمته، والآن أخبريني عن جميع شركاء زوجك.

ردت: أنا لا أعرف سوى "صالح"، وزوجي أيضاً لم يكن يعلم غيره، ولم يخبره صالح عن أي أفراد أخرى..

. ولا حتى الدكتور "شريف"؟

. صدقني لقد قلت لك عن كل شيء أعرفه.

. ولكن ماذا عن الأعمال السفلية.. هل بالفعل صنعت "لأبي محمد" عملاً سفلياً؟

لم تجب "أم الخير"..

ليعود رئيس المباحث: اعترفي يا "أم الخير".. فأنت لم تقتلي ولم تكوني شريكة، اعترفي فقط.. بعدها سأطلق سراحك على الفور.

قالها "الضابط" بصوت حاني صادق، فاق صدق أعظم ممثل وهو يؤدي دوره على خشبة المسرح،

لذا اعترفت أم الخير: أجل لقد حدث هذا مني..

صاح رئيس المباحث على العسكري، فجاء على الفور

ليقول له: خذ هذه الكافرة لحبس النساء.

نظرت "أم الخير" للضابط نظرة قاتلة، تشبه نظرتها لزملائه من ضباط المباحث، حينما كانوا يهاجمونها، ويلقوا بها خلف قضبان الحبس في تلك الليالي التي عملت فيها كراقصة..

والآن هي ليست راقصة.. بل شعرت أنها دجاجة لم تعلم أن من يستدرجها هو ذاته الثعلب ولكنه تنكر في وجه حمل حتى دخلت بيته وأظهر لها قناعه الحقيقي...

لملم رئيس المباحث أوراقه المبعثرة على المكتب، وقبل أن يهم من مقعده دخل أحد العساكر، وأخبره عن طلب "عصام" و"هدى" بالمقابلة.

كان موقف رئيس المباحث في غاية الصعوبة، أصعب من موقف جندي أراد أن يخبر أهل زميله أنه قد مات شهيداً، فهو لديه من الجرأة أن ينطق بأي شيء، وأن يقف بثبات ويخبر

"عصام" أن أباه مات وهو تاجر للمخدرات، وأنه استغل عجز الأموات ووضع في أفواههم سحراً قد صنعته أمه بيدها..

ويستطيع أيضاً أن يخبر "هدى" بأن أبوها لا يفرق شيئاً عن والد "عصام" فكلاهما وحشين لا فرق بينهما سوى أن كليهما يعيشان في بيئة تختلف عن بيئة الآخر، ولكن كيف يخبر "هدى" أن أباها قتل على يد من أنجب حبيبها إلى هذه الحياة لكي تحبه.

دخلت "هدى" و"عصام" وانقلبت الآيات، وتحول "ياسر" إلى مجرم في صمته وفي نظرات عينيه إلى الأرض، ويبدو أن صوته سيصبح خافتاً أيضاً كأصوات المجرمين، وهو يخبرهما بالحقيقة التي تعد بمثابة قنبلة ستنفجر فيهما، إذ سوف تقتلهما، أو تجرحهما وترمي بكل منهما بعيداً عن الآخر..

قال عصام: ما الذي صنعته أمي، لكي يتم القبض عليها؟

رد: لأنها كانت محترفة في صنع أعمال السحر يا "عصام".. ويبدو أنها من تسببت في قتل "أبو محمد" لزوجته.. كما كانت متسترة على جرائم بيع العظام والجماجم التي كان يقوم بها أبوك..

لم يشعر "عصام" بنفسه، وهو يقبض بيده على رقبة "ياسر"، ولكن "ياسر" لم يدفع يد "عصام" عن رقبته..

وأضاف: تذكر يا "عصام" تلك الليالي التي كان يخرج فيها أبوك للمقابر ليلاً ففي هذه الليالي كان يبيع جثث الأموات..

هز "عصام" رقبته: أنت كاذب وكلكم كذلك، الفقراء فقط هم من يحملون أوزار الأغنياء في هذا البلد..

ربت "ياسر" على يد عصام: وقال اجلس يا "عصام"

كانت "هدى" تنظر وتستمع في ذهول، حتى أنها كانت تضع يدها على رقبتها ربما كان هذا كابوساً مزعجاً.. وليس حقيقة.

أوضح "ياسر": ليس هناك أحد فوق القانون يا "عصام" ولا نفرق أبداً بين الفقراء، والأغنياء.. وإلا لم أكن أخطط الآن للقبض على الدكتور "شريف" هو الآخر..

وقفت هدى فجأة: الدكتور "شريف" صديق أبي؟

رد رئيس المباحث: أجل يا "هدى".

وضع "عصام" رأسه بين كفيه، وأخذ يستمع إلى هاتف في أذنه

يقول: أعلمت الآن كيف كنت تنجح يا "عصام" بكل عام وبأعلى التقديرات؟

أخذت عينا "هدى" تتحرك ذهاباً وإياباً، ويبدو أنها تتهرب من نظرات رئيس المباحث، دون أن تعلم أنه أيضا يتهرب من نظراتها، حتى تقابلت النظرات مع بعضها..

وسألت هدى وهي تضع أصبعها على فمها: وأبي؟

تنهد "ياسر" وأغمض عينيه وهو ينطق: وأبوك أيضاً يا "هدى" كان شريكاً لهما..

صرخت هدى: أنت كذاب.. كذاب

رد بصوت هادئ: لا يا هدى أنا لست بكاذب.. فأبوك كان على علاقة بوالد "عصام" منذ فترة طويلة، وكثيراً ما قاموا بهذه الجرائم.

قامت هدى وضربت على المكتب: أهذا يعني أن أبي سيسجن؟

سكت الضابط للحظات

ورد وهو ينظر لنافذة المكتب: لا يا "هدى" لن يسجن أبوك.. لأنه قتل.

حينها شعرت "هدى" للحظات أن الغرفة أظلمت، وأصبح كل ما حولها ما هو إلا ظلالاً، وبدأ جسدها يرتعش من هول الصدمة، لتجد يداً تمسك بها برفق وتضمها إلى صدره بقوة وكأنه يعلم أنه آخر عناق بينهما فقد كان عصام يعلم بمصيبة أخرى سينطق بها "شريف" الآن معلناً أن "عوض" هو الذي قتل "صالحاً"، كان "عصام" ينظر إلى "ياسر" باستعطاف، أي لا تحرمني من المسكن الوحيد لأوجاعي أرجوك.. لا تخبرني أن أبي الذي وعدني يوماً أنها ستصبح من نصيبي هو ذاته الذي أبعد بيني وبينها آلاف الأميال..

لذا نطق "عصام" أخيراً بصوته الخائف، وبتلك الدموع التي تنهال من عينيه بغزارة: من قتله يا حضرة الضابط.. قالها "عصام" واشتد عناقه أكثر من ذي قبل لحبيبته، واختلط صياحه مع صياحها المكتوم..

كان رئيس المباحث ينظر في حيرة للأعلى لعل هناك حبلاً يتدلى من السقف ويهرب من هذا الموقف، أعاد عليه "عصام" نفس السؤال كالذي يتعجل عذابه.

حينها قام رئيس المباحث وبينما هو يتجه نحو الباب إذ به

يجيب: أبوك من قتله يا "عصام" ودفنه بنفس المقبرة التي دفن فيها بعد ذلك.

قالها وحل الصمت بالغرفة، صمت يشبه صمت تماثيل لا حركة لها ولا صوت..

رفعت "هدى" رأسها عن صدره، وهزت رأسها في ذهول، وكأنها تقول أسمعت ما سمعته يا "عصام"؟

ولكن كان "عصام" حينها كالذي تحت تأثير حقنة مخدرة، لا يستطيع أن ينظر لها ويقرأ في عينيها كلمة واحدة من ألوف الكلمات، ولم يفق "عصام" حتى هرولت من أمامه وهو وراءها مخترقاً لزحام السيارات..

فتح المقبرة

تحرك رئيس المباحث ومأمور المركز تجاه المقابر علاوة على القوة المعاونة إضافة إلى رجال النيابة والطب الشرعي ومن خلفهما العمدة ومجموعة من الخفر، في حين كان "ابن بهانة" يتأكد من صلابة جدار المقبرة بعد أن أتم سد الشق الذي كان يتواجد فيه، وعندما شاهد سيارات الشرطة هذه جف ريقه على الفور، فهل علم هؤلاء أن "عوض" تم دفنه وهو على قيد الحياة؟ هل أخبرهم عفريت أنه وضع عملاً سفلياً في فم "عوض".

تقدم رئيس المباحث نحوه: وقال ما اسمك؟

رد أحمد برهبة: اسمي "أحمد إسماعيل" الحانوتي الجديد

. إذاً افتح مقبرة عوض الحانوتي، وانتظر معنا فنحن بحاجتك

طارت الأفكار السوداء من رأس "أحمد" فلو كان متهماً بأي شيء للطمه رئيس المباحث الآن على وجهه، أو لكانت لهجته حادة قوية..

فتح "أحمد" المقبرة، ودخل المأمور ورئيس المباحث والنيابة في حين كان رجال الطب الشرعي والعمدة بالخارج.

أشار المأمور: ما هذه الجثة الجديدة؟

رد: أحمد إنها جثة "عوض" الحانوتي القديم يا باشا

. إذاً قم بوضعها في أي جانب، وهذه العظام أيضاً حتى ننتهي من الحفر

سريعاً جرها "أحمد" ووضعها بأحد الجوانب، وهو يحمد الله أنه غطى الجثة بالكفن حتى رأسها.. أي لم ير أحد هذا الجرح العميق في رأس الجثة، أو ذلك العمل المدفون في فمها، ولكنه لم يفهم إلى الآن.. ما الذي يريده هؤلاء؟

ثم أمر المأمور ثلاثة من العساكر أن يروحوا ويجيئوا بين الأركان، وعندما لاحظ عمق أثر خطواتهم.

قال للحانوتي: هيا.. قم بالحفر هنا.

وبدأ "أحمد" بالحفر سريعاً، كي لا يلحظ هؤلاء دماء "عوض" الجافة

وفجأة خرج سن الفأس بقطعة من سترة "صالح" حينها أمر رئيس المباحث "أحمد" أن يتوخى الحذر في الحفر، فهناك جثة ستظهر الآن..

وأخيراً ظهر وجه الجثة، وتحرك العساكر لمساعدة "أحمد" على إخراجها،

وعندئذ تحرك رجال النيابة والطب الشرعي من أجل إتمام عملهم حيث اتجه رئيس المباحث إلى المأمور،

وقال له: هل وضح كل شيء يا سيادة المأمور؟

رد المأمور: أجل لقد وضح كل شيء.

رئيس المباحث: هل ستتركني أقبض على بقية أفراد العصابة.

المأمور: بالطبع.. بالطبع فأنا لست فرداً منهم.. لك ما تريد خاصة بعد تحول شكي أيضاً إلى يقين.. ولكن عليك أن توقعهم باحترافية في شباكك.

غادر رئيس المباحث المقابر، واتجه نحو المشفى، دق على باب المكتب الخاص

"بشريف"، فسمع صوتاً مرحباً، دخل رئيس المباحث وسلم على "شريف" فكانت يده باردة كبرودة الرخام، ثم جلس على المقعد، وأخرج سيجارة، وأشعلها، حيث قال بلا مقدمات: لقد وجدنا " صالحاً" في وكره وبحوزته مجموعة من الجماجم يا دكتور "شريف"..

انتفض "شريف" واقفاً،

وهو يصيح: ما علاقتي أنا بذلك؟

ابتسم رئيس المباحث: لقد اعترف عليك يا دكتور "شريف".

رد شريف وهو يضرب بقبضته على المكتب: إنه كاذب..

أمسك رئيس المباحث بكتف شريف وقال له

بصوت خافت: بل إنه ذكي اعترف عليك لكي تقل مدة حكمه، ولابد أن تعترف أنت الآخر على شركائك لكي تقل مدة سجنك يا دكتور "شريف" فلا حيلة لك سوى ذلك..

جلس الدكتور "شريف" على المقعد مرة أخرى، ووضع رأسه بين كفيه، وظل صامتاً بعض الوقت، حتى جاءت الممرضة.

تقول: لقد استفاقت المريضة يا دكتور "شريف" ولكنها مازالت في حالة خطرة.

لم يرفع "شريف" رأسه، حيث أشار لها رئيس المباحث بالانصراف

بعدها همس في أذن شريف،

وقال: أنا على يقين، أن هذه المريضة شريكتك.. أليس صحيحاً؟

رد شريف بحروف متقطعة: أجل هي شريكتي.

. ومن أيضاً؟

هز "شريف" رأسه،

ورد: صدقني لا أعرف سواها والدكتور "صالح".

اتصل رئيس المباحث على اثنين من العساكر

قال لهما: خذا الدكتور "شريف" إلى السيارة، على أن يبقى واحد معه، ويعود لي الآخر أمام غرفة العناية المركزة بهذا الدور.

اتجه رئيس المباحث إلى غرفة العناية المركزة، وطلب من الممرضة إبلاغ الطبيب المرافق لحالة المريضة بضرورة مقابلته

وخرج الطبيب، ليقول

له رئيس المباحث: هل تسمح لي بالتحدث مع المريضة قليلاً، فأنا رئيس مباحث وبحاجة لأقوالها من أجل إنهاء قضية كبيرة

رد الطبيب: ولكن لا تطيل الوقت، فحالتها في منتهى الخطورة

دخل رئيس المباحث: كيف حالك؟

ردت بإعياء شديد: حمداً لله الذي أنعم عليا حتى وصلت لهذا العمر

سكت قليلاً، فهذه السيدة لا تحتاج لأي خبث، أو مراوغة

حيث سألها: ما اسمك؟

ردت: هنية

قال: أين تقطنين؟

ردت: في قرية "البرابرة "

سألها أيضاً: هل تعرفين من أنا يا هنية.. ولماذا جئتك؟

أجابت هنية: أعلم أنك ضابط مباحث، وجئت لكي تتعرف على شركائي.

قال: أجل يا هنية، لقد قبضنا على حانوتي المقابر، وشريف هل تعرفين أي شخص آخر؟

ردت هنية: أعرف.. ولكن عدني أولاً.

سأل ياسر: بم أعدك يا "هنية"؟

قالت: ألا تدع أولادي يروني بهذا المنظر، وترسل جثتي إلى القرية وتقنع أولادي بدفنها في مقابرهم

سأل: وهل لك أبناء؟

قالت: أجل ابن عمره عشرين عاماً، والآخر عمره ثمانية عشر

عاماً... هل تعدني؟

رد ياسر: أعدك يا "هنية " تكلمي.

وتحدثت "هنية" بصعوبة وأخبرته عن شريكها "شريف" ومتى وكيف عملت معه، علاوة على اعترافها على المكان التي كانت تسلم فيه البضاعة للعمدة ذلك الرجل الذي أخبرها من قبل عن فردين آخرين من أفراد العصابة، وهما "عوض" الحانوتي، والدكتور "صالح"..

خرج رئيس المباحث من غرفة العناية، وأمر العسكري أن يقف هنا للحراسة ويخبره على الفور إن حدث أي جديد..

استقل السيارة، واتجه للقسم، وأمر بوضع "شريف" بالحجز وعاد مرة أخرى للمقابر..

أخذ رئيس المباحث يمعن النظر في وجه العمدة، وعينيه التي يبرق فيهما الدمع تأثراً بجثة المسكين "صالح"، ثم اتجه نحوه، وربت على كتفه بعطف، جعلت الدموع تنبثق من عينيه

بغزارة، كما تنبثق من أعين التماسيح حيث أمسك "ياسر" بيده برفق وابتعد به عن رجال الأمن.

ثم قال رئيس المباحث: أتعرف هذا القتيل؟

رد العمدة بشفقة: لا.. ولكني شاهدته ذات يوم في حفل افتتاح عيادة الدكتور "عصام"..

دار "ياسر" حول العمدة

وقال له بعطف: يا لك من طيب القلب يا عمدة.. أتبكي على عضو عصابة كبيرة؟

رد العمدة بدهشة: عضوا في عصابة.. أي عصابة؟

مد "ياسر" يده في جيب العمدة، ليخرج منه منديلا، ويضعه فوق عينيه، وهو يدعي البكاء هو الآخر قبل أن

يقول: إنها تلك العصابة التي تعد أنت عضواً بها.. هل تذكرتها؟

أم ستجعلني أموت من البكاء؟

بدأ الذعر يسري بجسد العمدة، وكأنه يحاسب الآن مثله كمثل أهل هذه القبور..

ليعود رئيس المباحث: لا تندهش هكذا لقد أخبرتني "هنية" بكل شيء.. والآن لابد أن تدلنا على رئيس العصابة.. وإلا اعتبرتك أنت رئيسها.. وعندئذ ستنالك أقصى عقوبة..

تحرك العمدة ببطء ووضع يده فوق إحدى المقابر، بعد أن ربت "ياسر" على ظهره بحنان وهو يقول: ها.. ساعدني وساعد نفسك يا عمدة

رد العمدة بصوت خافت وأشار له بأن "شعبان الغرابلي" هو رئيس العصابة

ثم وصف له مكان التسليم أيضاً..

عندئذ صاح رئيس المباحث على أحد الضباط: خذ هذا للسيارة على الفور.

لم يفهم الموجودون أي شيء، ولكنهم لم يعلقوا على أي شيء، وانتهى العمل أخيراً، وغادر الجميع نحو مكاتبهم كل يستعد لكتابة تقريره، أما "أحمد" فقد فتح المقبرة مرة أخرى، وأخرج العمل السفلي، ومزقه تماماً، وهو يحمد الله أن أنجاه في هذه الليلة من السجن، ولم يشاهد أحد هذا العمل السفلي، ولم يلحظ أحدهم وجود قطرات من الدماء الجافة، ويفتح معه تحقيقاً حيث كانت أول صلاة "لأحمد" أمام المقابر تلك التي تحمل بداخلها أموات يحسدونه على أنه لم ينقطع عمله إلى الآن..

عاد رئيس المباحث للقسم، وأوضح للمأمور كل شيء، وأنه لم يتبق سوى القبض على "شعبان الغرابلي" عضو مجلس الشعب ثم جاءت التحريات السريعة التي أفادت أن "شعبان" سيقضي ليلته بأحد القرى من أجل الدعاية للانتخابات القادمة..

في الليل ذهب رئيس المباحث حيث يتواجد "شعبان"، وجلس وسط الفلاحين وكلما قال "شعبان" جملة يقوم رئيس

المباحث ويصيح ككبير مشجعي كرة القدم: لا بديل عن "شعبان". أما شعبان فقد كان ينظر له ويبتسم،

وبعد انتهاء هذا البرنامج الترويجي

اتجه رئيس المباحث وسلم عليه، وبادله "شعبان" السلام الحار، بعدها قال

له: هل تعرفني بنفسك؟

همس "ياسر" في أذنه: أنا من جاء الليلة للقبض عليك.. فقد اعترف العمدة بكل شيء.. ألم يكفيكم مص دماء الناس وهم أحياء، وتمصون عظامهم أيضاً وهم أموات..

سارع "شعبان" بانتزاع يده من يد رئيس المباحث

ولكنه قال: هووووش نحن لا نريد أي فضائح وسط أنصارك.. هيا سر معي بهدوء، وفي القسم لابد أن تعترف لي على بقية شركائك وصبيتك أيضاً، وسار "شعبان" تجاه عربة الشرطة التي توهم الناس أنها جاءت بأفرادها من أجل حراسته ودخل السيارة في حين مد رئيس المباحث رأسه من نافذة السيارة

وصاح وكأنه يسخر من هؤلاء اللذين جاءوا ليساندوا "شعبان"

. لا بديل عن "شعبان"، والناس تردد وراءه إلى أن سكت وهو يتحسر على هؤلاء ونفاقهم الذي لن ينتهي أبداً.

النهاية

في الصباح فتح رئيس المباحث تحقيقاً رسمياً مع جميع المتهمين، وبعدها أحال أوراقهم إلى النيابة، وقد قامت النيابة بدورها بسجن الجميع خمسة عشر يوماً على ذمة التحقيق، عدا "أبو محمد" الذي قررت النيابة تحويله إلى إحدى المستشفيات النفسية والعصبية للتأكد من سلامة قواه العقلية بعد ذلك رن جرس هاتف المكتب، فرفع السماعة، وقد أخبره العسكري الواقف لحراسة "هنية" أنها فارقت الحياة الآن..

وقف رئيس المباحث، ليتجه للمشفى، ولكن في هذا الوقت حدث شيء غريب، فقد دخل عليه اثنان من الشباب، ظن أنهما بالفعل أبناء "هنية"..

قال أحدهما: لقد جئنا من أجل الإشارة التي أرسلتها لعمدة قريتنا فأمي متغيبة وتحمل نفس المواصفات التي تحدثت عنها.. أخبرني ماذا فعلت أمي؟

بشفقة قص رئيس المباحث عليهما كل ما حدث، وأن أمهما ماتت في هذه اللحظات، وعلى الرغم من انتقاء "ياسر" لكلماته حفاظاً على شعورهما إلا أنها كانت كطلقات نارية بجوار

أذنيهما، لذا كان كل منهما يجز على أسنانه، ويكمش من وجهه، حتى سد كل منهما أذنه، فيكفي إلى هذا الحد...

رفض الابنان استلام الجثة، فلتتصرف الشرطة في أمرها، أو تدفنها في مقابر الصدقات..

نظر رئيس المباحث إلى الشابين، وهما يصيحان بالبكاء، ويضربان بكفوفهما على مكتب الضابط، ويرددان خلف بعضهما.. مجرمة.. مجرمة

بعدها وقف "شريف" بهدوء، وأوقفهما أمامه،

وقال بحسرة: هي بالفعل مجرمة في نظري، ونظر الجميع، ولكن لا تنسيا أنها فضلت الإجرام من أجل راحتكما وغناكما، باعت نفسها للشيطان لتقبضا أنتما ثمن ذلك، ويجب ألا تتبرآ منها أبداً..

سكت رئيس المباحث للحظات حتى يشاهد تأثير حديثه هذا عليهما

ثم عاد: هيا لكي تتسلما جثة أمكما.. وسأقوم أنا بتوصيلها بنفسي إلى مقابر قريتكم.

كان عناق هذين الشابين لرئيس المباحث ما هو إلا إعلاناً بالموافقة على ما أشار لهما..

وبالفعل تم دفن هنية، ووقف رئيس المباحث يدعو لها ومن خلفه ولداها وبعض من رجال القرية، ثم عاد رئيس المباحث سريعاً وكأنه يعلم أن هناك شيئا آخر حدث، أجل فقد تسربت

أخبار عن تجارة "عوض" والعمدة في جماجم وعظام الموتى وهاجت القرية كل ينتقم لميته، فكل واحد من سكان القرية لديه ميت على الأقل وسط هذه القبور حيث حرقوا عيادة "عصام" وطردوه، وقاموا بحرق بيته، وتوجهوا لبيت العمدة وحرقوه هو أيضاً..

ولكنهم لم يستطيعوا إحراق المزرعة لما فيها من دواجن وحيوانات، وقد حضر رئيس المباحث ومجموعة من الضباط والعساكر فور ما تم إبلاغهم بهذا

صاح رئيس المباحث مفزوعاً: أين عصام هل قتلتموه؟

. قال أحد الفلاحين: لا بل طردناه خارج القرية.

رد ياسر: ألا تعلمون قول الله "لا تزر وازرة وزر أخرى"؟

علق أحمد الحانوتي: لقد قلت لهم هذا كثيراً ولكن لا فائدة.

اتصل رئيس المباحث برجال الإطفاء، ثم غادر للبحث عن "عصام" تاركاً التحقيق لزملائه من الضباط، بينما تقدمت مستورة من "أحمد"

وقالت: ما هذا التقى يا "أحمد"؟

نظر لها ولم يجب، وبينما هو يهم بالمغادرة من أمامها،

قالت: أمازلت مصمماّ على خطبتي؟

رد أحمد ساخراً: لقد صنعت لك عملاً، ثم أحرقته، فربما غداً لن تسأليني هذا السؤال.

تساءلت مستورة: وهل هذا العمل صنعته منذ سنوات؟ لأنني أحبك بالفعل منذ سنوات لا أتذكر عددها.

رد أحمد وهو يستعد للفرحة: وماذا عن "حسان" الخفير؟

. لا.. أنا لا أحبه، ولكني أمسكت به كسلاح، ربما بحثت لك عن عمل وانتهيت من البطالة، وجلوسك ليلاً ونهاراً في المقهى.

ابتسم أحمد ابتسامة مرعبة، فضحكت مستورة

قائلة: أمري إلى الله..

لم يبحث رئيس المباحث كثيراً عن "عصام"، فلم تكن هذه مهمته من الأساس بل هي مهمة "هدى" حيث ذهب بعد ذلك لبيت "هدى"، ورن جرس الباب، ففتحت له وهي ترتدي ثيابها السوداء

وقالت في ضجر: نعم.. هل جئت للتحفظ على الشقة والأموال.. إليك ما تريد.

رد رئيس المباحث: لا يا "هدى"، ثم أخرج من جيبه مفتاحاً،

وعاد قائلاً: هذا مفتاح شقة قد اشتراها أبوك منذ شهور دون علمك بذلك، ثم أخبرها عن عنوانها بالبر الشرقي..

ثم أضاف: لقد جئتك أيضاً من أجل إعلامك أن بيت "عصام" وعيادته قد تم حرقهما، وطرد أيضاً خارج القرية، وهو بحاجة إليك الآن كما أنت بحاجة إليه..

لم يقل غير ذلك، وغادر سريعاً، تاركاً "هدى" في حيرة لا تحسد عليها.

أما "عصام" فقد كان يدور في طرقات المدينة، كرجل بدائي لا يملك مأوىً أو سكناً....

حتى جلس هناك على شاطئ البحر في نفس المكان الذي كان يقابل فيه "هدى" من قبل، كان سبب بكاء "عصام" الصامت أنه لم يستطع كره أمه وأبيه حتى بعد هذه الفضيحة، وهذا الفراق القاتل بينه وبين حبيبته..

نام "عصام" جالساً من فرط البكاء على ذلك الكرسي العريض، وكأن النوم قد جاء ليريحه من هذه الدنيا لدقائق، ينسى خلالها ما اقترفه أبوه، وأمه، وربما حلم بأنه يبكي على "صدر" حبيبته.

مرت ساعة منذ نومه، حتى شاهد في منامه هذا أنه يضع رأسه على صدرها وتمسك هي بيده، ولم يعرف أن الحلم أصبح الآن حقيقة، فعندما استيقظ وجدها بالفعل تجاوره، وقد وضعت هي رأسه بالفعل على صدرها كأم حنون في وقت كانت تمسك يده وتمرر بأصبعها عليها بعطف.

وضع "عصام" يده على رقبته، ليتأكد إن كان هذا بالفعل حلماً أم حقيقة.

نادى عليها بصوت خافت وكأنه يخاف أن تختفي من أمامه مرة أخرى : هدى...

ردت بحب: نعم يا "عصام".

. هل أنت بالفعل معي الآن ؟

ردت بابتسامة حزينة: أجل.. وعلى الدوام سأبقى معك

ثم رفع "عصام" رأسه عن صدرها، ووضعت هي رأسها على صدره ولم يتحدث "عصام" عن أي شيء سوى تركه لمهنة الطب، ودراسته لعلم الهندسة.

بينما أشارت هي له بضرورة الزواج والعيش في بيت أبيها، أو بتلك الشقة الجديدة دون أن يتحدث "عصام" عن تلك المسافة التي كان يشعر بوجودها بينها وبينه، فلم تعد هناك أي مسافة بينهما فكلاهما ابنا لمجرمين، وكلاهما بريئان، يراهما المجتمع مجرمين أيضاً كأبويهما اللذين وجدا نفسهما بمقبرتهما أحياء، وحاولا الهروب من محاسبة ملكين لا يعرفان سوى العدل، بينما أولادهما الآن في مقبرة أوسع اسمها المجتمع يحاولان الهروب من نظرات وهمسات أفراده الظالمة...

سار "عصام" و"هدى" نحو المأذون ليعقدا عقداً اسمه اقتسام الجراح والآلام.. كان "عصام" يشد على يد "هدى" وكأنه يوصيها بالصبر والتحمل على ما تخبئه لها الأيام القادمة، أما "هدى" وكأنها قد تفهمت ما يريده وفتحت يدها وباليد الأخرى تمسك بيد حبيبها وتجري، وهو يجري بجوارها وكأنها قررت، وقرر هو معها أن يواجها رصاصات المجتمع، وهما يعلمان أنهما لن يموتا مادامت أيديهما متشابكة مع بعضها برباط الحب..

المؤلف في سطور

عبد العزيز السيسي.

المؤهل: ليسانس آداب جامعة المنوفية.

صدر له ثلاث قصص في كتاب مجمع اسمه صرخة فزع، إنتاج دار حسناء، وثلاث قصص أخرى في كتاب مجمع أيضًا بعنوان كوكب العزلة إنتاج دار جولدن بوك للنشر والتوزيع علاوة على صدور ستين قصة لأدب الأطفال إنتاج دار روان لكتب الأطفال والوسائل التعليمية، ودار الجيل الجديد بشبرا الخيمة. إضافة إلى قصة وحيدة في كتاب اسمه لوسيفر1 إنتاج دار شهرزاد للنشر والتوزيع، كما قام بكتابة مجموعته القصصية التي حملت عنوان صائدة الرجال إنتاج دار المثقفون العرب للنشر والتوزيع..